أغرب من الخيال

راجي عنايت

العالم سنة ٢٠٠٠

مستقبل جديد للبشر



دار الشروق

العالم سنة ٢٠٠٠

مستقبل جديد للبشر

الطبعة الثانية

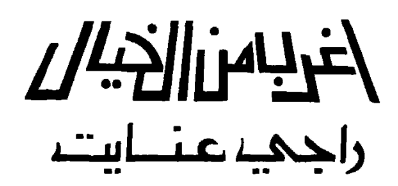
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٥٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

SHOROK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4, TELEX: SHOROK 257786



راجي عنايت



دار الشروق

مُقدَّمة

في الوقت الذي يلعب فيه الارهابيون لعبة الموت مع رهائنهم.. وتهبط العملات وسطشائعات نشوب الحرب العالمية الثالثة. ـ وتنفجر السيارات المفخخة.. وتندفع قوات الصاعقة الى أكثر من أرض.. في هذا الوقت لا نملك إلا أن نبحلق فزعين في عناوين الصحف التي تحمل إلينا هذه الأخبار.

سعر الذهب، ذلك البارومتر الحساس للخوف، يندفع في حركته متجاوزاً كل السوابق.. البنوك تهتز.. التضخم ينفلت خارجاً عن إرادة وقدرة الجميع.. وصلت حكومات العالم في جمودها الى حالة أقرب الى الشلل والبلاهة.. في ظل هذا كله يتطلع رجل الشارع حوله قائلاً: لقد فقد العالم عقله... ويغرق علماء المستقبل في دراستهم لهذه المؤشرات، ويطل علينا بعضهم وهو يقول: إن العالم يمضي سريعاً الى كارثة..

لكن كاتب المستقبل المبدع آلفين توفلر يرى في ذلك كله، رؤية مختلفة، ومدهشة في تكاملها. ويرى وراء هذه الأحداث التي قد تبدو بلا

ترابط أو معيشتن بأشكالاً مدهشة للحياة، ومستقبلاً مليئاً باحتمالات الأمل، في اطار الموجة الثالثة من الموجات الحضارية، والتي نعيش اليوم بداياتها.

إنه يبشر بانهيار الحضارة الصناعية التي فرضت علينا مبادئها على مدى ثلاثة قرون، وبزوغ حضارة جديدة، أكثر إنسانية، وأكثر احتراماً لذاتية الإنسان..

ويقول إن الصراع الأساسي في العالم لن يكون بين الرأسمالية والاشتراكية، بل سيكون بين أصحاب المصالح في الحضارة الصناعية المنهارة، وبين دعاة حضارة ما وراء الصناعة التي تزحف بإصرار..

والأهم من هذا كله، هو أن حضارة الموجة الثالثة. تحمل في طياتها أملاً جديداً لشعوب العالم الثالث، وتبشر هذه الشعوب بإمكان تجاوز الهوة الحضارية التي تفصل بينها وبين الدول الصناعية المتطورة. ولهذا فقد أضفت في نهاية هذا الكتاب، مشروعاً للمناقشة، يصلح بداية للتفكير في كيفية تأهب مصر، وغيرها من الدول النامية، لمواجهة الحضارة القادمة والاستفادة من ظروفها.

راجي عنايت

الفصل الأول

احتضار المجتمع الصناعي

بعيداً عن الايديولوجيات التي تحكم رؤية علماء الشرق والغرب لمستقبل البشرية، يقدم الفين توفلر رؤية جديدة لمسيرة التاريخ البشري، رؤية ترى تاريخ الحياة على كوكبنا في صورة تتجاوز التفاصيل المتناقضة لكي تصل إلى جوهر الأشياء، والقوانين الأساسية التي تحكمها. لقد رأينا كيف رفض دكتور إيفان فرولوف رؤية توفلر التي تتجاوز فكرة الصراع الطبقي، ونفس هذا الرفض يلقاه توفلر من بعض علماء المستقبل في العالم الرأسمالي.. ومع ذلك، فإن البناء الذي يقيمه، والصورة التي يرسمها لحياتنا الماضية، وما ينتظرنا فيما يقبل من أعوام، وطريقة تحليله للماضي من أجل استخلاص قانون المستقبل، كل ذلك يدعو إلى الاحترام، مهما كانت خلافاتنا مع هذه الرؤية.

ألفين توفلر هو صاحب كتاب «صدمة المستقبل» الذي ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٠، والذي باع منه ما يزيد على سبعة ملايين نسخة في أنحاء العالم، وهو رقم قياسي عالمي، إذا ما أدخلنا في الاعتبار أن الكتاب لا يتحدث عن نجوم السينما أو الجنس، وهو بالقطع ليس من بين الكتب البراقة التي تخبرك كيف تصبح مليونيراً في ستة أشهر!.. إنه كتاب جاد في التحليل والنقد الاجتماعي ترك آثاره على القراء في كل أنحاء العالم، وجرت ترجمته إلى العديد من اللغات.

وفي عام ١٩٨٠ ، قدم توفلر كتاب «الموجة الثالثة»، وهو كتاب أكثر جدية، وأعمق تحليلاً، ويتميز ببعد اجتماعي ناضج لم يتوفر لكتاب «صدمة المستقبل». وقد حظي هذا الكتاب بنفس الإقبال والشيوع، وحقق رقماً قياسياً في التوزيع باليابان، وجرت ترجمته إلى الهولندية والعبرية والتركية، بالاضافة إلى اللغات التي كان قد ترجم إليها وهي الفرنسية والألمانية والاسبانية. ومنذ عام بدأ توفلر يعمل مع تليفزيونات اليابان وأمريكا وكندا، لإعداد برنامج تليفزيوني هام وضخم، يقوم على أساس أفكاره التي طرحها في كتاب «الموجة الثالثة».

فما قصة «الموجة الثالثة»؟..

بين الكارثة والأمل

في جميع كتاباته يركز توفلر على التغيرات التي تطرأ على حياتنا، على سرعتها واتجاهاتها.. وهو يقوم بتحليل المعلومات في مجالات حضارية وثقافية متعددة، كعلم النفس والاقتصاد والتكنولوجيا والتاريخ، ويخرج من هذا كله بصورة مذهلة في تكاملها وجدتها لعالم الأمس واليوم والغد. والصورة التي يطرحها توفلر للقوانين التي تحكم هذه التغيرات صورة متفائلة، برغم كل ما نعيشه من فوضى وأزمات ومشاكل وصدامات.. في هذا يقول:

«في الوقت الذي يلعب فيه الارهابيون لعبة الموت مع رهائنهم، وتهبط فيه العملات وسط شائعات نشوب الحرب العالمية الثالثة، وتنفجر فيه السفارات، وتندفع قوات الصاعقة إلى أكثر من ارض.. لا نفعل أكثر

من أن نبحلق بفزع في عناوين الصحف. وسعر الذهب، ذلك البارومتر الحساس للخوف، يندفع في حركته متجاوزاً كل السوابق. البنوك تهتز، والتضخم ينفجر خارجاً عن إرادة الجميع. حكومات العالم انكمشت حركتها، فوصلت إلى حالة أقرب إلى الشلل أو البلاهة.. في هذا الوقت، يتطلع رجل الشارع حوله قائلاً أن العالم فد فقد عقله.. بينما يشير المختصون إلى جميع الاتجاهات والمؤشرات الحالية، باعتبار أنها تقود العالم إلى كارثة!!».

«هذا الكتاب يقدم رؤية مختلفة تماماً.. إنه يؤكد أن العالم لم ينجرف نحو الجنون.. وأنه وراء الأحداث التي تبدو بلا معنى، تكمن أشكال مدهشة للحياة، زاخرة باحتمالات الأمل».

احتضار المجتمع الصناعي

وهو يصر على أن التغيرات التي تحدث في عالم اليوم، لا يمكن النظر إليها كلاً على حدة باعتبارها منفصلة لا ترتبط ببعضها. وأن هذه التيارات ليست عشوائية، ولا تحدث بمجرد الصدفة.. وهو ينظر إلى أحداث مثل انفراط عقد الأسرة الكبيرة التي كانت تضم الأبناء والأحفاد والأعمام والأخوال، وأزمة الطاقة العالمية، وشيوع العقائد والعبادات والجماعات الغريبة، وظهور تليفزيون الكابل الذي يتصل سلكياً بمحطة البث التليفزيوني ويخلق صلة متبادلة بين المحطة والمتفرج، وانتشار الحركات الانفصالية من كويبيك إلى كورسيكا.. ينظر إلى كل هذه الظواهر والأحداث كعناصر متكاملة في صورة الواقع، وليس كأحداث معزولة عن

بعضها. . وهو يعتقد أنها جميعاً جوانب مترابطة في ظاهرة أكبر، هي ظاهرة احتضار المجتمع الصناعي، وبزوغ شمس حضارة جديدة.

فغياب إطار الرؤية عند التصدي لفهم تصادم القوى في عالم اليوم، يجعلنا أشبه ببحارة المركب الذي وقع تحت رحمة العاصفة، يحاولون أن يسيروا مركبهم وسط الصخور الخطيرة، دون بوصلة أو خارطة. ويساعد على هذا الضياع، أننا في ثقافة تطاحن التخصصات، نغرق في شذرات المعلومات المتفتتة المتشظية، والتحليلات الجزئية الأنيقة، ولهذا فإن مهمة التجميع والتوليف والربط بين هذه العناصر المختلفة لا يصبح فقط أمراً مفيداً، بل واجباً حيوياً لا غنى عنه.

من خلال جهد الجمع والتركيب والتوليف الذي قام به توفلر لشظايا المعلومات والمعارف المتنافرة، استطاع أن يرسم صورة الحضارة القادمة التي نعيش اليوم بداياتها الأولى. وهو يصفها قائلاً: «إن هذه الحضارة على درجة من الثورية الشاملة، تجعلها قادرة على تحدي كل افتراضاتنا القديمة، إن الطرق القديمة في التفكير، والنظريات والمذاهب والايديولوجيات القديمة، مهما كان مدى انتشارها، أو مدى فائدتها لنا في الماضي. . لن تعود مناسبة لحقائق اليوم».

حضارة باهرة

في فصل من فصول كتاب الموجة الثالثة يحمل اسم «الصراع الفائق»، يقول توفلر:

«تتخلق اليوم حضارة جديدة في حياتنا. . وفاقدوا البصر في كل مكان

يحاولون أن ينكروا مظاهرها، هذه الحضارة الجديدة تحمل معها أشكالاً جديدة للأسرة، وطرقاً متغيرة في العمل والحب والمعيشة، تحمل معها اقتصاداً جديداً، وصراعات سياسية من نوع جديد، وفوق هذا وذاك تحمل أيضاً وعياً وإدراكاً جديدين. بعض جوانب هذه الحضارة يمكن أن تراه في حياتنا اليوم. . بل أن ملايين البشر بدأوا في ضبط نسق حياتهم على إيقاعات المستقبل. . والبعض الآخر، الذي يخاف المستقبل ينشغل بهروب عابث يائس إلى الماضي، ويحاول الابقاء على حياة العالم المحتضر الذي أعطاهم حياتهم».

«إن بزوغ فجر هذه الحضارة الجديدة هو أكبر حقائق عصرنا تفجراً. . إنه الحدث المركزي، ومفتاح فهم السنوات القريبة القادمة، إنه من الأحداث ذات التأثير العميق الذي لا يقل في تأثيره عن موجة التغير الأولى التي تفجرت منذ عشرة آلاف سنة مضت، باختراع الزراعة. . ولا يقل في تأثيره عن الزلزلة التي أحدثتها الموجة الثانية بقيام الثورة الصناعية. . إننا أبناء التحول التالي، أبناء الموجة الثالثة».

وهو يقول إن ما تواجهه الانسانية هو قفزة كمية إلى الأمام، إنها تواجه أعمق التغيرات الاجتماعية، وأكثر عمليات الاصلاح خلاقية وفعالية على مدى العصور. من الضروري أن نعرف ذلك، ونعرفه بوضوح، إننا نشارك في تشييد حضارة باهرة جديدة، من بدايتها الأولى. . وهذا هو معنى الموجة الثالثة الذي يقصده توفلر.

وهو يذكر أننا حتى اليوم قد مررنا بالتغيرات العظيمة التي جلبتها

موجتان عظيمتان، وكانت كل موجة منهما تمحو الثقافات والحضارات السابقة، وتحل محلها أساليب جديدة في الحياة لم تكن مقبولة في السابق. لقد استغرقت تغيرات الموجة الأولى، الثورة الزراعية، آلاف السنين لكي تستكمل عناصرها. أما الموجة الثانية، ظهور الحضارة الصناعية، فلم يستغرق أكثر من ثلثمائة سنة. واليوم، وقد أصبح التأريخ أكثر تسارعاً، من المرجح أن تندفع الموجة الثالثة عبر التاريخ، لتكتمل عناصرها خلال بضع عشرات من السنين. ونحن، الذين تصادف وجودهم على سطح الارض في هذه اللحظة المتفجرة، سنشعر بالضغوط الكاملة للموجة الثالثة خلال سنوات حياتنا.

المنتهلك

الموجة الثالثة التي يتحدث عنها توفلر.. ستؤثر على كل شخص وكل شيء.. ستمزق المواصفات الحالية للأسرة، وتهز اقتصاديات العالم، وتشيع الشلل في نظمه السياسية الحالية، وتهدم ما نتمسك به الآن من قيم. إنها قادمة لكي تتحدى كل علاقات القوى القديمة، وكل المزايا والحقوق الخاصة لصفوة هذه الأيام، وتقدم الخلفية التي ستدور عليها صراعات القوى الرئيسية في المستقبل.

ويرى أن الحضارة الصاعدة تتناقض كثيراً مع الحضارة الصناعية التي كنا نعيش فيها. هي في تقديره حضارة تكنولوجية عالية، وغير صناعية في نفس الوقت. فستأتي الموجة الثالثة بطرق جديدة مبتكرة للحياة، قائمة على مصادر طاقة متنوعة ومتجددة، وعلى طرق في الانتاج تجعل معظم

خطوط الانتاج في مصانع اليوم غير ذات جدوى، سترسي أسساً عائلية جديدة لا تتسم بالمركزية، وستفرز مؤسسات جديدة يمكن أن نطلق على الواحدة منها تعبير «الكوخ الالكتروني»، وستعتمد على مدارس ومؤسسات مختلفة جداً عما نعرفه، بل ستكتب لنا الحضارة الجديدة شفرة جديدة في السلوك. وستحملنا إلى ما هو ابعد من أنماط التوحيد القياسي، والتزامن، والمركزية. . وإلى ما هو أبعد مما نعرفه الان من مركزية الطاقة والمال والقوة.

الحضارة الجديدة، خلال تحديها القديم، ستسقط البيروقراطيات، وتقلل من دور الدولة، وتفرز ما يمكن أن يسمى الاقتصاديات شبه الحرة. إنها تحتاج إلى حكومات أكثر بساطة، وأكثر فعالية. وتكون في نفس الوقت أكثر ديموقراطية من الحكومات التي يعرفها العالم اليوم.

وأهم ما ستقدمه حضارة الموجة الثالثة هو تضييق الهوة بين المنتج والمستهلك، لتخلق المنتج المستهلك، أو ما يطلق عليه توفلر (المنتهلك)، والذي سيكون أساس اقتصاديات الغد. ويصل توفلر إلى قمة تفاؤله عندما يقول «إنها ستصبح أول حضارة حقيقية في التاريخ المعروف».

رؤيتان للمستقبل

وهناك صورتان متناقضتان تماماً للمستقبل تستوليان على خيال البشر حالياً.

فمعظم الناس، إذا لم يبلغ بهم الأمر حد عدم التفكير في المستقبل أصلاً، يفترضون أن العالم الذي عرفوه سيبقى إلى الأبد كما هوا . . إنهم يجدون صعوبة في تصور طريقة أخرى مختلفة لحياتهم، فما بالك بتصور حضارة جديدة تماماً. بالطبع هم يعلمون أن الأشياء من حولهم تتغير، لكنهم يفترضون أن التغيرات التي تظهر اليوم، ستمضي بطريقة ما إلى حال سبيلها، وأن لا شيء يمكن أن يهز الإطار الاقتصادي أو البناء السياسي الذي تعودوا عليه . . إنهم، باختصار، ينظرون إلى المستقبل على اعتبار أنه مجرد استمرار للحاضر.

هذا النوع المسطح من التفكير يظهر لنا في أشكال متعددة. في أحد مستوياته يظهر كافتراض، افتراض لم يسبق أن تم اختباره، يكمن خلف القرارات التي يتخذها رجال الأعمال، والمدرسون، والآباء، والسياسيون. وعلى المستوى الأكثر عمقاً، يظهر هذا النوع المسطح من التفكير، وقد ارتدى ثوباً من الاحصاءات، والمعلومات الخارجة من العقول الألكترونية، ورطانات المتنبئين بالمستقبل. وفي كل من المستويين، يقود هذا التفكير إلى رؤية لعالم المستقبل تقوم أساساً على الفرامانات الصناعية للموجة الثانية، مع تصور المزيد من رواجها وشيوعها وشمولها لأنحاء أوسع من كوكبنا.

وكانت هذه الظاهرة، أو هذا النوع من التفكير، يستفزني عندما أقرأ نتائج تقارير المجالس المتخصصة واللجان الوزارية حول مستقبل مصر سنة ٢٠٠٠ . . فمعظم هذه التقارير تغفل أي تغير شامل محتمل في حياة

الانسان على الأرض، وتبحث مشكلة الاسكان مثلاً، وكأن السنة الحالية بكل ما فيها، ستتكرر عشرات المرات، حتى نفيق وقد عبرنا إلى القرن القادم.

يقول توفلر إن الأحداث العالمية الأخيرة قد هزت، وبشدة، مدى الثقة في هذه الصورة للمستقبل. ومع تلاحق الأزمات، واحدة وراء الأخرى، تحتل العناوين الرئيسية في الصحف. مع انفجار الوضع في إيران، وإعادة النظر في مبادىء ماوتسي تونج، ومع الارتفاع الصاروخي لأسعار البترول، ومع معدلات التضخم المسعورة، ومع انتشار الإرهاب ووقوف الحكومات موقف العاجز عن مواجهته، مع كل هذا بدأت تشيع رؤية جديدة - أكثر إجداباً وعمقاً - وتكتسب شعبية واسعة، فقد مالت نسبة عالية من البشر إلى الاعتقاد بعدم جدوى رسم صورة المستقبل لمجتمع اليوم، ذلك لأنه ليس هناك أي مستقبل للبشرية، وأن يوم القيامة قد حل بلا ريب، وأصبح أقرب إلينا مما نتصور. وأن العالم قد بدأ فعلاً اندفاعه نحو نهايته المأساوية.

شلل الخيال والإرادة

قد تبدو هاتان الصورتان أو الرؤيتان للمستقبل، عند النظرة الأولى، غاية في الاختلاف. ومع ذلك فهما تحدثان نفس الأثر السيكولوجي والسياسي. . إنهما تقودان معاً إلى حالة من الشلل في الخيال والإرادة . .

فإذا كان مجتمع الغد هو ببساطة صورة مكبرة واشمل لمجتمع اليوم، فلن تكون بنا حاجة كبيرة إلى التهيؤ له. . ومن ناحية أخرى، إذا ما كان

هذا المجتمع مكتوباً عليه أن يحطم نفسه خلال حياتنا، فليس هنـاك ما يمكننا أن نفعل من أجله. . وباختصار، تقود هاتان الرؤيتان للمستقبل إلى حالة من الفردية والسلبية، الأمر الذي يشيع الجمود والشلل.

لهذا، يجب علينا أثناء محاولتنا فهم ما يجري حولنا، ألا نقف عند حد أي من هذين الخيارين السـطحيين، فكرة نهـاية العالـم، أو فكرة أن ما سيأتي به الغد هو المزيد مما هو موجود. فهناك طرق أخرى متعددة، أكثر استنارة وإيجابية للتفكير في الغد، طرق تؤهلنا للمستقبل. . والأهم من ذلك تساعدنا على تغيير الحاضر.

وكتاب الموجة الثالثة لألفين توفلر يقوم على ما يسميه (الفرض الثوري) ويشرح ذلك قائلاً «برغم أن السـنوات القادمة، من المحتمـل أن تجـيء مشحونة بالهزات والانقلابات، وربما بالعنف الذي يعم كل مكان، فإننا لن نصل إلى تحطيم أنفسنا كلياً. . إن التغيرات التي تمر بنا، والتي تهزنا بشدة ليست عشوائية بلا حساب، بل إنها تشكل في الحقيقة نمطاً محدداً، يمكن تمييزه بوضوح. . إن ما يحدث يوحي بأن هذه التغيرات تراكمية في طبيعتها، وإنها تضاف إلى بعضها البعض، لتصنع تحولاً عملاقاً في طريقة حياتنا، وعملنا، ولعبنا، وتفكيرنا. . وإن الاحتمال كبير في وصولنا إلـى مستقبل عاقل مرغوب فيه. ما أطرحه، باختصـار، يبـدأ بافتـراض أن ما يحـدث الآن، لا يقـل عن كونـه ثورة عالمية، وقفـزة كمية في تاريخ البشرية».

صدر الموجة

ولا يكفي القول بأن التغيرات التي تواجهها ستكون ثورية. فقبل أن نتعامل مع هذه التغيرات، أو نسيطر عليها، نحتاج إلى طريقة جديدة في التعرف عليها وتحليلها. . وبدون هذا، سنجد أنفسنا ندور في حلقة من الضياع.

ومن أقوى التناولات الجديدة في هذا الصدد، ما يطلق عليه تعبير «التحليل الاجتماعي لصدر الموجة». وهذا التناول ينظر إلى التاريخ كتتابع للموجات المتدافعة من التغيير، ويبحث عن الذي تحمله معها بداية كل موجة. . إنه يركز انتباهنا بدرجة أقل على تواصل التاريخ، مع أهمية هذا، وبدرجة أكبر على نقط الانفصال. . على كل ما هو جديد وطارىء ومتميز.

والتحليل الاجتماعي لصدر الموجة يبدأ بفكرة بسيطة جداً، تقول إن الزراعة هي أول نقطة تحول في تاريخ التطور الاجتماعي للبشرية، وإن الثورة الصناعية كانت الاختراق الكبير الثاني. . وهو ينظر إلى كل منهما، ليس كحدث مستقل متميز، ولكن كموجة من التغيرات تتحرك بسرعة معينة.

قبل الموجة الأولى من التغيرات، عاش معظم البشر في جماعات، مهاجرة في الأغلب، تحصل على طعامها بالتنقيب عنه، أو بصيد السمك، أو باقتناص الحيوانات، أو بالرعي، وفي زمن معين، منذ حوالي عشرة آلاف سنة، بدأت الثورة الزراعية، وزحفت في بطء على أنحاء الكرة

الأرضية، ناشرة القرى والمستوطنات والأرض المزروعة، وناشرة مع ذلك نمطاً جديداً في الحياة.

ولم تكن الموجة الأولى قد استنفدت قواها بعد عند نهاية القرن السابع عشر، عندما تفجرت الثورة الصناعية في أوروبا، بادئة الموجة العظيمة الثانية من التغييرات العالمية. هذه العملية الجديدة ـ عملية التصنيع ـ بدأت تتحرك بسرعة أكبر عبر الدول والقارات. وهكذا تتابعت موجتان منفصلتان ومتميزتان عن عمليات التغيير عبر العالم في وقت واحد.. وبسرعتين مختلفتين.

الشعور بتصادم الموجتين

واليوم، خمدت الموجة الأولى فعلاً، ولم يبق من آثارها سوى عدد تجمعات قبلية في جنوب أمريكا، أو في غينيا الجديدة مثلاً، تجمعات تعتمد على الزراعة. لكن القوى الأساسية لتلك الموجة العظيمة الأولى قد تبددت الان بشكل فعلي.

ومن ناحية أخرى، انتهت الموجة الثانية من إحداث ثورة في حياة أوروبا وأمريكا الشمالية، وأجزاء أخرى من العالم، خلال قرون قليلة، ثم ما زالت في حالة انتشار.

العديد من الدول بدأت تشعر الآن بالتصادم المتزامن لموجتين أو ربما ثلاث موجات تغير مختلفة.. تتحرك كلها بمعدلات سرعة مختلفة، وبدرجات متباينة من القوة.

الكمبيوتر وحبوب منع الحمل

ويحاول توفلر أن يضع تاريخاً تقريبياً لتتابع هذه الموجات، فيقول أن عصر الموجة الأولى بدأ حوالي عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد، وساد الأرض بدون أي تحد، حتى عام ١٦٥٠، وربما ١٧٥٠. منذ هذا التاريخ فقدت الموجة الأولى عزمها، بينما اندفعت الموجة الثانية بعد أن استجمعت قواها. وقد سادت الحضارة الصناعية، التي هي وليدة الموجة الثانية.. سادت العالم بدورها، حتى انكسرت حدتها هي الأخرى.

وقد بدأت نقطة التحول الجديدة في أمريكا عام ١٩٥٥، في الوقت الذي شهد انتاج الكمبيوتر على نطاق واسع. وشهد السفر بالطائرات النفاثة، وحبوب منع الحمل، والعديد من المبتكرات والمستحدثات. في ذلك الوقت بالذات بدأت الموجة الثالثة تستجمع قواها في الولايات المتحدة الأمريكية. ومنذ ذلك الوقت تتابع وصولها، مع فوارق زمنية طفيفة، إلى معظم الدول الصناعية الأخرى، بما في ذلك بريطانيا وفرنسا والسويد وألمانيا والاتحاد السوفيتي واليابان.

واليوم.. تترنح جميع دول التكنولوجيا المتقدمة من أثر التصادم بين الموجة الثالثة وبين اقتصاديات ومؤسسات الموجة الثانية المتكسرة الخامدة.

وضوح الرؤية . . ضمان

عندما تسود إحدى موجات التغيير مجتمعاً ما، يسهل أن نميز بشكل نسبي شكل التطور في هذا المجتمع مستقبلاً . . وقد استطاع الكثير من الكتاب والفنانين والصحفيين أن يستشعروا «موجة المستقبل». وظهر أثر هذا في العديد من كتاباتهم وأعمالهم. لذلك كان لدى العديد من المفكرين، وكبار رجال الأعمال والساسة، وبعض الأفراد العاديين، في القرن التاسع عشر بأوروبا فكرة واضحة سليمة في أساسها عن المستقبل. لقد شعروا أن التاريخ يتحرك في اتجاه النصر النهائي للصناعة على زراعة ما قبل الميكنة. وفي دقة ملموسة، قالوا أيضاً بالعديد من التغيرات التي ستحملها معها الموجة الثانية: المزيد من التكنولوجيات العالمية، المدن الأكبر، المواصلات الأسرع. . التعليم الجماعي. . وهكذا.

وضوح الرؤية هذا، كانت له تأثيراته السياسية المباشرة، فقد أتاح للأحزاب والحركات السياسية أن تنسق موافقتها بالنسبة للمستقبل. ومن جانب آخر، نظمت المصالح الزراعية حركة مقاومة ضد التصنيع المقتحم، وضد رؤساء الاتحادات والنقابات، وضد مدن الخطيئة والاثم الناشئة في أحضان الصناعة. . وفي نفس الوقت سعى العمال ومديرو المشروعات الصناعية إلى إحكام قبضتهم على مفاتيح القوة في المجتمع الصناعي البازغ.

اختلاط التقدمي بالرجعي

وعلى العكس من هذا، عندما يفاجأ مجتمع ما باصطدام موجتين أو أكثر من موجات التغيير، لم يكتب الفوز النهائي والسيادة الكاملة لأي منهما، تتفتت وتتشرذم صورة المستقبل. ويصبح من أشق الأمور استنباط معنى التغيرات والصراعات الناشئة.

إن الاصطدام الناشىء عن صدر موجة مقتحمة يحيل حياتنا إلى محيط صاخب متلاطم، حافل بالتيارات والعواصف الصاخبة، التي تخفي وراءها حركة المد التاريخي الأكثر أهمية والأكثر عمقاً.

ويتحدث توفلر عن الوضع الحالي في الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من الدول، فيقول:

«إن التصادم الذي يحدث بين الموجتين الثانية والثالثة يخلق توترات اجتماعية، وتناقضات خطيرة، وتيارات سياسية جديدة وغريبة، تمزق التقسيمات التقليدية للطبقات والأجناس والأحزاب. هذا التصادم يحيل المفردات السياسية التقليدية إلى مجرد لغو، ويجعل من الصعب علينا أن نفرق بين التقدمي والرجعي، وبين الأصدقاء والأعداء».

ثم يحاول أن يفسر هذا، فيقول إنه في عديد من الدول، حيث تنحاز الطبقة العاملة الى السياسات «التقدمية» التقليدية، كاعادة توزيع الدخل، نراها اليوم تقف موقفاً «رجعياً» بالنسبة لحقوق المرأة، والهجرة، والضرائب، والاقليمية. وبصفة عامة يقف اليسار التقليدي غالباً موقفاً

رجعياً من المشاكل المثارة.

ويقول توفلر إن الزعماء والقادة، من فاليري جيسكار ديستان إلى جيمي كارتر (اللذين كانا في السلطة عندما صدر كتاب الموجة الثالثة)، يتبنون مواقف «محافظة» بالنسبة للاقتصاد، ومواقف «تحررية» بالنسبة للفن وأخلاقيات الجنس وحقوق المرأة، والتحكم في البيئة. ولهذا ليس غريباً أن يغرق الناس في دوامات الخلط هذه، فيتوقفون عن محاولة تفهم ما يجري في عالمهم.

أما وسائل الاعلام، فهي تكتفي بأن تقدم للجمهور تتابعاً لا ينتهي من أخبار المستحدثات، والمتناقضات، والصراعات، والأحداث المختلطة.. القتل والخطف، انطلاقات الفضاء، سقوط وتهاوي الحكومات، هجمات الفرق الانتحارية، الفضائح.. تقدم ذلك كله بطريقة تبدو معها كل هذه الاحداث، وكأنها أحداث متفرقة، لا يربط بينها رابط.

رواج العلاج النفسي

هذا التفكك الواضح في الحياة السياسية، نجد له انعكاساً في التفكك والانفصام الذي تتسم به شخصية الإنسان المعاصر. ولعل خير دليل على ذلك الثروات الهائلة التي يكونها المعالجون والأطباء النفسيون، والسعي المتخبط للناس بين مختلف أساليب العلاج النفسي المتنافسة.. واندفاعهم إلى عبادات وعقائد غريبة، أو غرقهم في فردية مرضية.. نتيجة للاعتقاد الشائع بأن الحاضر والواقع عبارة عن عبث وجنون، أو على

أحسن الفروض بلا معنى.

لكن هذا الاستخلاص أبعد ما يكون عن الحقيقة.. فهناك في الحقيقة نظام خفي متميز يمكن أن نكتشف عنه بمجرد أن نتعلم كيف نفرق بين تغيرات الموجة الثالثة، وبين الظواهر المرتبطة بالموجة الثانية والتي تمضي في طريق الاضمحلال.. إن فهم الصراعات الناشئة عن تصادم الموجات، لا يعطينا فقط صورة أوضح لبدائل المستقبل، ولكنه يزودها بصورة نافذة، أشبه بصورة الأشعة السينية، للقوى السياسية والاجتماعية التي تؤثر فينا. ذلك لأن التيارات المتعارضة الناشئة عن تصادم موجات التغيير تنعكس على عملنا، وحياتنا العائلية، ومواقفنا من الجنس، ونمط اخلاقياتنا، كما أن أثر هذه التيارات المتعارضة يحدد اختياراتنا وأسلوب حياتنا.

يقول توفلر: «ذلك لأن معظمنا في الدول الغنية يتأثر في حياته الشخصية، وتصرفاته السياسية بالموقف الذي يقفه: هل هو من أبناء الموجة الثانية الذين يحاولون إحياء النظام المحتضر والابقاء عليه، أم هو من أبناء الموجة الثالثة الذين يسعون إلى بناء غد مختلف جذرياً، أم هو خليط متناقض في التبعية للموقفين».

مقاعد الباخرة الغارقة!

إن الصراع بين أتباع الموجتين الثانية والثالثة، هو في الحقيقة، مصدر التوتر السياسي الجوهري الذي يؤثر في مجتمعنا اليوم. وبرغم ما تبشر به اليوم الأحزاب المختلفة، والتيارات السياسية المتعارضة.. فإن الحرب

الدائرة بينها لا تخرج عن كونها نزاعاً حول «من الذي سيتمكن من اعتصار أكبر الفوائد من بقايا النظام الصناعي المحتضر. . إنهم يشتبكون في عراك على كسب أكبر قدر من المقاعد على سطح عابرة المحيطات الغارقة تيتانيك!»

والسؤال السياسي الأساسي المطروح الآن، ليس هو من الذي يتحكم فيما بقي من أيام المجتمع الصناعي، ولكنه: من الذي يشكل الحضارة الجديدة التي تتدعم عناصرها بسرعة لتحل محل الحضارة الصناعية؟.

المواجهة التي تقوم بين أصحاب المصالح في الموجة الثانية وبين أبناء الموجة الثالثة أخذت تتصاعد وتسري سريان الكهرباء في الحياة إلسياسية لكل الدول. وحتى دول العالم غير الصناعية. . قد أعيدت فيها رسم جميع خطوط القتال القديمة، بحلول الموجة الثالثة.

ولكي نحدد الموقف الأسلم في هذا الزمن الحرج، علينا أن نميز بوضوح بين الظواهر المتصلة بالحضارة الصناعية الزائلة، وبين تلك التي تسهل مقدم الموجة الجديدة. وباختصار، علينا أن نفهم جيداً كلاً من القديم والجديد. . علينا أن نفهم النظام الصناعي للموجة الثانية، الذي ولد فيه معظمنا. وأن نفهم أيضاً عناصر حضارة الموجة الثالثة التي سنعيش فيها نحن وأولادنا.

وهذا يتطلب منا أن نلقي نظرة أدق على التغيرات التي صاحبت الموجتين الاولى والثانية، كتمهيد لنظرة أوضح على الموجة الثالثة. سنكتشف، فيما يلي، أن حضارة الموجة الثانية لم تكن مجرد مكونات

قفزت إلى السطح وتجمعت بالصدفة، بل هي (نظام) له جوانبه المختلفة التي تبادلت التأثير فيما بينها، بطريقة يمكن التنبؤ بها. . وسنكتشف أن البنية الأساسية للحياة الصناعية كانت هي نفسها في دولة بعد أخرى، بصرف النظر عن اختلاف الميراث الثقافي. . أو الفوارق السياسية، أو تباين التوجهات الأيديولوجية. . وهي الحضارة الصناعية التي يقاتل الرجعيون ـ من اليمين واليسار ـ للابقاء عليها.

الفصل الثاني

الموجة الثانية . . وراء الحرب الأهلية الأمريكية، والثورة الروسية . .

لكي نفهم الموجة الثالثة التي نعايش اليوم بداياتها، والتي تتسارع في تكاملها، بحيث يرجح أن تصل إلى أوجها خلال عشرات السنين فقط وليس مئات السنين كما حدث في الموجة الثانية الصناعية، وليس آلاف السنين كما في حالة الموجة الأولى الزراعية. لكي نفهمها جيداً، لا بد لنا أن نتأمل الموجات السابقة، ونرصد بدقة مرحلة اصطدام الموجة الثانية بالموجة الأولى، لكي نتعرف على خصائص اصطدام الموجات. ثم علينا أن نرى كيف شكلت الموجة الثانية، أو الحضارة الصناعية، تفاصيل حياتنا على مدى مئات السنين، وصبغت بطابعها كل مناحي النشاط الإنساني، لكي نتعرف على الطريقة التي ستتشكل حياتنا بها عندما تعبر الموجة الثالثة حياتنا.

عندما سادت الموجة الاولى، وشاعت الحضارة الزراعية، كان من الممكن تقسيم سكان العالم إلى قسمين: البدائيون، والمتحضرون. كان البدائيون هم من لم تصلهم الثورة الزراعية، يعيشون في قبائل وتجمعات صغيرة، ويعتمدون في حياتهم على صيد الحيوانات والأسماك. أما المتحضرون فقد عاشوا حيث انشغل الإنسان بزراعة الأرض. وحينما ازدهرت الزراعة، وجدت الحضارات جذوراً لها.

فقامت الحضارات واضمحلت، وتحاربت واندمجت، من الصين والهند، إلى المكسيك، إلى اليونان وروما.

ووراء الاختلافات الشديدة التي تظهر بين هذه الحضارات، توجد دائماً أوجه شبه أساسية.. في كل منها كانت الأرض هي أساس الاقتصاد والحياة والثقافة ونمط الأسرة والنشاط السياسي. وفي كل منها كانت الحياة تنتظم حول القرية.. وساد كل منها تنظيم بسيط للعمل، وتبلورت فئات وطبقات محدودة: النبلاء، ورجال الدين، والمقاتلون، وأقنان الأرض والعبيد. وفي كل منها كانت السلطة شاملة، يخضع الفرد خضوعاً كاملاً لمصلحة الجماعة. وفي كل منها كان مولد الإنسان يحدد وضعه في الحياة، وكان الاقتصاد غير مركزي، بمعنى أن كل مجتمع كان ينتج معظم احتياجاته.

بالطبع كانت هناك بعض الاستثناءات فالحياة لا تحتمل مثل هذا التبسيط. فقد نشأت وسط ذلك حضارات تجارية، خاض بحارتها أنحاء البحار، كما نشأت ممالك مركزية للغاية حول نظم الري العملاقة.

الثورة الصناعية

وعندما سادت الحضارة الزراعية، ظهرت إرهاصات الحضارة التالية. فقد وجدت بعض المصانع البدائية للانتاج على نطاق واسع في بلاد اليونان وروما. كذلك جرى ضخ البترول في إحدى جزر اليونان عام ٤٠٠ قبل الميلاد، وفي بورما عام ١٠٠ ميلادي. وقد انتعشت بيروقراطيات

واسعة في بابل ومصر. . وشيدت مدن كبيرة في آسيا وأمريكا الجنوبية. وتقاطعت الطرق عبر الصحاري والمحيطات ووسط الجبال. ولكن هذه الإرهاصات كانت تبدو كغرائب وعجائب لا يجمعها كيان واحد.

كان ذلك هو العالم الذي تفجرت فيه الثورة الصناعية.

كانت الصناعة أكثر من مجرد مداخن وخطوط تجميع. . كانت نظاماً اجتماعياً خصباً له أكثر من وجه، أثر على كل جوانب الحياة البشرية، وهاجم كل معالم الموجة الأولى.

وعند انتشار الموجة الثانية عبر المجتمعات أثارت حرباً شعواء بين المدافعين عن الماضي الزراعي، وبين رواد المستقبل الصناعي. والتصادم العنيف بين الموجة الأولى والموجة الثانية، أزاح في طريقه، بل وأهلك في أغلب الأحيان من أسميناهم بالبدائيين.

الأسباب الحقيقية

ويرى الفين توفلر أن الحرب الأهلية الأميركية لم تنشب أساساً كما يخيل للجميع، حول مبدأ أخلاقي هو موضوع العبيد والعبودية، أو حول موضوع الرسوم والتعريفات. لقد نشبت لتحسم سؤالاً أكثر أهمية: هل يحكم القارة الغنية الجديدة الفلاحون أم الصناعيون؟ هل تنشأ الحضارة الأميركية على أساس الموجة الأولى أم الموجة الثانية؟ وبمجرد انتصار جيوش الشمال، حسمت القضية، وتأكد المستقبل الصناعي للولايات المتحدة. . وتكرر نفس الشيء في اليابان عام ١٨٦٨، بإلغاء الاقطاع،

وتبني أساليب الحياة الأوروبية.

كما يرى توفلر أن الثورة الروسية عام ١٩١٧، كانت مناظرة للحرب الاهلية الاميركية. ويرى أنها قامت أساساً من أجل إرساء الحضارة الصناعية، أكثر مما قامت للسبب الشائع وهو تسييد النظام الشيوعي. وأن الصدام بين الموجة الأولى والموجة الثانية انتقل من بلد إلى بلد بنفس الطريقة، تصاحبه الأزمات السياسية والانقلابات والاضطرابات والحروب. وأنه عندما وصلنا إلى منتصف القرن العشرين، كانت قوى الموجة الأولى قد تبددت، وسادت حضارة الموجة الثانية أنحاء العالم.

وبرغم ما بين مجتمعات الموجة الثانية من خلافات في اللغة والثقافة والتاريخ والبنية السياسية. تلك الخلافات التي بلغ من عمقها أن نشبت بسببها الحروب برغم هذا فإنها تشترك جميعاً في سمات أساسية عامة واحدة. ولكي نفهم تصادم موجات التغيير الذي نعيشه هذه الأيام، لا بد أولاً أن نحدد بوضوح البناء المتوازي لكل الدول الصناعية، والمخطط الخفي الثابت لحضارة الموجة الثانية. لان هذا المخطط بالذات هو الذي تنقض عليه قوى الموجة الثالثة.

البطاريات الحية

أساس أية حضارة، قديمة أم حديثه هو الطاقة..

وقد استمدت مجتمعات الموجة الأولى طاقتها مما يطلق عليه توفلر تعبير «البطاريات الحية»، يعني بذلك القوة العضلية للانسان والحيوان، وبالإضافة الى طاقة الشمس والرياح والأنهار.

وعلى العكس من ذلك، استمدت جميع مجتمعات الموجة الثانية طاقتها من الفحم والغاز وزيت البترول، وهي نتاج حفريات لا تتجدد. وهذا يعني أنه منذ الخطوة الثورية التي نمت باختراع الالة البخارية عام ١٧١٢، بدأت الحضارة ـ لاول مرة ـ تأكل من رأس مال الطبيعة وليس من أرباحها ونواتجها. اندفعت الدول الصناعية تبني وتشيد وتصنع وتتقدم، وفقاً لافتراض يقول أن وقودها الرخيص سيظل متوفراً إلى الأبد.

والقفز إلى نظام جديد للطاقة، كان موازياً له في الحضارة الصناعية تقدماً عملاقاً في التكنولوجيا. فبينما اعتمدت الموجة الأولى على بعض الابتكارات البسيطة التي استهدفت مضاعفة تأثير العضلات البشرية والحيوانية، كالروافع والأوناش والمقاليع، دفعت الموجة الثانية بالتكنولوجيا إلى مستوى جديد تماماً. لقد أعطت الموجة الثانية للتكنولوجيا أعضاء حس كاملة، مما أتاح صناعة آلات تسمع وترى وتلمس بدقة أكبر وكفاءة أعلى من إحساس الإنسان.

ومن المراكز الصناعية المتطورة! تدفقت ملايين المنتجات المتطابقة، وهكذا فتحت التكنولوجيا المتقدمة، والتي تعتمد على الطاقة الجديدة، الأبواب إلى الإنتاج على نطاق واسع.

السجال التكنولوجي

ولم يكن للانتاج على نطاق واسع أي معنى، ما لم يحدث تغيير أساسي في نظم التوزيع.

في مجتمعات الموجة الاولى كانت البضائع تنتج عادة بأساليب يدوية. . وكانت تنتج قطعة بعد قطعة، وبنفس الطريقة كان يجري توزيعها.

إلا أن الموجة الثانية أحدثت انقلاباً جذرياً في مسألة التوزيع والتسويق. . ومن أجل هذا شقت الطرق، ومدت خطوط السكك الحديدية وحفرت القنوات. ومع الصناعة والانتاج على نطاق واسع، ظهرت محلات ومراكز البيع الكبرى لأول مرة، وظهرت بالتبعية وظائف جديدة لشبكة عمال البيع، وبائعي الجملة، والوكالات والسماسرة، ومندوبي الصناعات.

والمجال التكنولوجي للموجة الثانية، اقتضى «مجالاً اجتماعياً» يلائمه، ويكون على نفس المستوى من الثورية. وقد فرض هذا أشكالاً جديدة تماماً من التنظيمات الاجتماعية.

سقوط السلطة الأبوية

قبل الثورة الصناعية، كانت أشكال الأسرة تختلف من مكان إلى مكان، لكن ما من مكان وصلت إليه الزراعة، إلا ومال الناس فيه إلى العيش في بيت كبير يضم عدة أجيال من الأسرة، بما في ذلك الأقرباء والأنسباء. وكان الكل يعمل كوحدة إنتاجية اقتصادية واحدة. وعندما بدأت الموجة الثانية تجتاح الأرض التي كانت الموجة الأولى تحتلها، شعرت العائلات بضغوط التغيير، وتلقت السلطة الأبوية ضربة محسوسة،

وتغيرت العلاقات بين الآباء والأبناء.

ومع تحول الانتاج الاقتصادي من الحقل إلى المصنع، لم تعد تعمل معاً كوحدة. وحتى يتفرغ العامل للانتاج في المصنع، حلت محل الوظائف الأساسية في الأسرة مؤسسات متخصصة جديدة. فأوكل تعليم الأطفال إلى المدارس، والاهتمام بكبار السن ورعايتهم إلى الملاجىء وبيوت العجزة أو المصحات. والأهم في ذلك، تطلب المجتمع الجديد القدرة على انتقال العامل من مكان إلى مكان. ومع الهجرة إلى المدن، وتحت وطأة الاضطرابات الاقتصادية المصاحبة للتغيير؛ تخلصت العائلة من الأقارب، ووصل الامر إلى ما يطلق عليه «الأسرة النووية»، والتي تتكون من الأب والأم وعدد قليل من الأبناء. انسحب هذا على المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية في نفس الوقت. حتى في اليابان، حيث عبادة الأجداد، وحيث المكانة الخاصة للعائلة، بدأ ظهور الأسرة النووية مع تزايد المد الصناعي.

المدرسة ـ المصنع

ومع خروج العمل من الحقل والبيت، كان من الضروري إعداد الأبناء للعمل في المصنع.

وتمخض عن هذا هيكل مركزي آخر في مجتمعات الموجة الثانية، ألا وهو التعليم الجماعي، فأقيمت المدارس على شكل المصنع التي تخرج التلاميذ. وكان على التعليم العام الجماعي أن يلقن التلاميذ أساسيات

القراءة والكتابة والحساب، وشيئاً من التاريخ والموضوعات الأخرى.

لكن خلف هذا المنهج الظاهر، كان هناك منهج خفي أكثر أهمية.

هذا المنهج الخفي تضمن ـ وما زال يتضمن ـ في جميع الدول الصناعية ثلاثة دروس هامة: التدرب على الالتزام بالمواعيد، وطاعة الرئيس، والتعود على العمل المتكرر. والسر في هذا هو أن العمل في المصنع يتطلب عمالاً يصلون إلى عملهم في الوقت المحدد، خصوصاً أولئك العمال الذين يعملون على خطوط التجميع، كما يتطلب عمالاً يتلقون التعليمات من رؤسائهم وفقاً للتسلسل الوظيفي، فيطيعونها دون تساؤل أو استفسار. ويحتاج إلى رجال ونساء على استعداد للعمل كعبيد للآلة أو للمكتب، يقومون بالعمل المتكرر كل يوم، دون احتجاج أو تذمر.

وبصفة عامة، كونت الأسرة النووية مع نظام التعليم الشبيه بنظام المصنع، شكلاً متكاملاً لإعداد الصغار لكي يحتلوا أماكنهم بكفاءة في المجتمع الصناعي.. وهنا أيضاً تشابهت مجتمعات الموجة الثانية في الدول الرأسمالية كما في الدول الشيوعية، وفي دول الشمال كما في دول الجنوب.

الشركات الكبرى

وقد ظهرت في مجتمعات الموجة الثانية مؤسسة ثالثة، ساعدت على تقوية نفوذ المؤسستين السابقتين، الأسرة النووية، والمدرسة ـ المصنع،

وكانت تتمثل في الاختراع الجديد المعروف باسم «الشركة». . فقبل هذا، كان العمل مملوكاً للفرد أو الاسرة أو لمجموعة من الشركات، لكن لم تكن الشركات الكبرى ذات رؤوس الاموال الضخمة معروفة في حياة الناس. ولذا كانت هناك بعض الشركات خلال الموجة الأولى. فقد كانت نادرة للغاية.

لقد اقتضى الانتاج على نطاق واسع خلال الموجة الثانية، تجمعاً عملاقاً لرأس المال، أكثر مما يستطيع شخص أو مجموعة أشخاص توفيره. وفي عام ١٩٠١ ظهرت في أميركا أول شركة رأسمالها بليون دولار، وكانت شركة «الصلب للولايات المتحدة». وما أن حل عام ١٩١٩، حتى ظهرت ست شركات أخرى بهذه الضخامة. وأصبحت الشركات الكبرى واتحاد الصناعات سمتين ثابتتين للحياة الاقتصادية في الدول الصناعية. سواء كانت رأسمالية أو شيوعية. وقد اختلف شكل ذلك في الدول الشيوعية. ولكن بقي الأمر واحداً من وجهة النظر التنظيمية.

من موسيقى الحجرة إلى السيمفونية

حول هذه المؤسسات الجوهرية الثلاث نشأت مجموعات من التنظيمات: الوزارات الحكومية، النوادي الرياضية، الكنائس، الغرف التجارية، النقابات، التنظيمات الحرفية، والأحزاب السياسية، والمكتبات، الروابط العرقية، الفرق الترفيهية، وآلاف غيرها.

للنظرة الأولى، قد يوحي تنوع هذه التنظيمات بالعشوائية، وبأنها وليدة

الصدفة، لكن عند تأملها، يمكن أن تكتشف العلاقات الخفية بينها. فخلال الموجة الثانية، وفي دولة بعد أخرى، كان المبتكرون الاجتماعيون، الذين يقتنعون بأن نظام المضنع هو أكثر النظم كفاءة في الانتاج، يحاولون أن يطبقوا هذه القناعة على كل التنظيمات الاجتماعية الأخرى. وهكذا أخذت المدارس والمستشفيات والسجون والمكاتب الحكومية. . وغيرها من التنظيمات، تستمد خصائصها من خصائص المصنع: تقسيم العمل والبناء الوظيفي المتسلسل والالتزام البارد بكل ما هو غير شخصي.

وحتى الحياة الفنية يمكن أن نجد فيها تطبيقاً لبعض مبادىء المصنع، فبدلاً من العمل تحت رعاية حاكم أو كفيل كما كان الحال في المجتمع الزراعي، وقع الموسيقيون والمصورون والممثلون والكتاب تحت رحمة السوق. وهكذا بدأ الفنان يقدم انتاجه لمستهلك مجهول. وبالتبعية تغيرت أسس الانتاج الفني.

ويعطي توفلر مثلاً بالموسيقى، حيث أوجبت مقتضيات المجتمع الصناعي تحول موسيقى الحجرة الى موسيقى سيمفونية. ويقول إن تقسيم الفرقة الموسيقية خضع لنفس تقسيمات العمل في المصنع. ويقول إن تاريخ الأوركسترا يقدم مجرد صورة للعديد من الصور التى كونت المجال الاجتماعي للموجة الثانية الذي يتمشى وينسجم مع المجال التكنولوجي لها.

إلا أن الحضارات لا تعتمد فقط على هذين المجالين، وتحتاج

بالإضافة إليهما مجالاً إعلامياً، لإنتاج وتوزيع المعلومات. وفي هذا المجال أيضاً جاء التغييرات التي أحدثتها الموجة الثانية ملفتة للغاية.

ثورة المكاتب البريدية

كل المجتمعات البشرية. منذ العصور البدائية وحتى اليوم، تعتمد في الاتصال على الاتصال المباشر بين شخص وشخص. . لكن الأمر اقتضى نظاماً خاصاً لتبادل الرسائل عبر الزمان والمكان. وقد ابتكرت الحكومات المختلفة عدة طرق للاتصال، عن طريق الأبراج، والعدائين والحمام الزاجل، والنار والطبول.

أثناء حضارة الموجة الأولى، كانت هذه الامكانيات مقصورة على الأغنياء والأقوياء فقط. إلا أن الموجة الثانية، في مرورها على دولة بعد أخرى، حطمت ذلك الاحتكار في مجال الاتصالات، ليس لأن الأغنياء والأقوياء قد أصبحوا أقل أنانية، بل لأن تكنولوجيا الموجة الثانية، وإنتاج مصانعها الذي جرى على أوسع نطاق، تطلب حركة ضخمة للمعلومات، لم يكن من الممكن أن تفي بها القنوات القديمة.

ولهذا، ما إن وصلت حركة الموجة الأولى إلى أوجها، حتى تسابقت الدول لإنشاء مكاتب الخدمة البريدية، التي وفرت أول قناة واسعة للاتصالات في عصر الصناعة. إلا أن الاحتياج المتزايد بشدة لتبادل المعلومات في المجتمع الصناعي، لم تكن تلبية الكلمة المكتوبة. . وهكذا تم اختراع التليفون والتلغراف في القرن التاسع عشر.

لهذا، تنامى في كل المجتمعات الصناعية، رأسمالية واشتراكية، نظام متطور من قنوات الاتصال التي تخدم المجال الإعلامي، يتم عن طريقها توزيع الرسائل الشخصية والجماهيرية، بنفس الكفاءة التي يتم بها توزيع المنتجات أو المواد الخام. وهذا النظام الإعلامي يساند ويخدم المجال التكنولوجي، والمجال الاجتماعي، بهدف إحداث نوع من التكامل بين الانتاج الاقتصادي والسلوك الشخصي.

مثل هذا النظام مرجعه إلى الفصل بين الانتاج والاستهلاك. فالحاجة إلى السوق، التي تقوم بدور عامل السويتش لإعادة الربط بين المستهلك والمنتج، تضع بالضرورة أولئك الذين يتحكمون في السوق في وضع قوة غير مبرر، برغم كل ما يسوقونه من أدلة وبراهين لتبرير قوتهم.

والفجوة التي بين دور المنتج ودور المستهلك، خلقت بالتبعية ازدواجاً في الشخصية عند الفرد. فتنفس الشخص الذي لقنته عائلته ومدرسته ورئاسته، باعتباره منتجاً، أن يدين بالولاء وأن يكون منضبطاً مطيعاً، وأن يتعود العمل من خلال فريق.. نفس هذا الشخص تم تلقينه باعتباره مستهلكاً أن يبحث عن المتعة العاجلة، وأن يقيم الأشياء على أساس ما توفره له من لذة، ولو كان ذلك على حساب أي تقييم لإمكانياته المالية، وألا يخضع لأي نظام، وأن يسعى وراء المباهج الفردية.. وباختصار، تم تلقينه أن يكون شخصاً مختلفاً بالمرة.

المبادىء الستة

لكل حضارة قوانينها أو شفرتها الخفية، والتي تخضع لها كل النشاطات خضوعاً مطلقاً. ومع سيادة الحضارة الصناعية، أصبح من الممكن اكتشاف مبادئها الستة، التي تحكم حياة الملايين، والتي جاءت نتيجة للفصل بين الانتاج والاستهلاك.. وهي المبادىء التي يدافع عنها حالياً أبناء الموجة الثانية. ويتحداها ويهاجمها أبناء الموجة الثالثة.. وهذه المبادىء هي:

- التوحيد القياسي أو النمطية.
- التخصيص الشديد.
- التزامن، وضبط توقيت حدوث الأشياء.
- التركيز في الكيانات الصناعية والاقتصادية والحياة بشكل عام.
- فلسفة السعي نحو الحدود القصوى في كل شيء.
- المركزية الشديدة.

وأشهر معالم الموجة الثانية هو التوحيد القياسي أو النمطية. فالمجتمعات الصناعية تفرز ملايين المنتجات المتطابقة التي على نفس النمط. إلا أن مبدأ النمطية يتجاوز المنتجات الصناعية لينسحب على كل شيء في حضارة الموجة الثانية.. نظم العمل، حياة الإنسان، وغير ذلك من أوجه النشاط. ومن الأقوال المأثورة لفريدريك وينسلو تيلور، منظّر النمطية والتوحيد القياسي في المجتمع الصناعي: هناك طريقة (قياسية)

أفضل لأداء كل وظيفة، وأداة (قياسية) أفضل لإنجاز هذه الوظيفة بها، وزمن (قياسي) لإتمام هذه الوظيفة. وبهذه المقولة أصبح تيلور رائداً في علم الإدارة، ووضعه سدنة الحضارة الصناعية في مصاف فرويد وماركس وفرانكلين.

وقد أبدى الماركسيون حماساً شديداً لمبدأ النمطية والتوحيد القياسي. فحض لينين على أساليب تيلور، وتطبيقها في الانتاج الاشتراكي. ويقول الفين توفلر «.. ولينين أيضاً باعتباره رجل صناعة أولاً، وشيوعياً ثانياً، كان مؤمناً بالقياسية متحمساً لها..».

وفي نفس الوقت تلعب وسائل الإعلام الجماهيري دوراً هاماً في تكريس صورة التوحيد القياسي، عندما يقرأ أو يرى ملايين البشر، في نفس الوقت، نفس الإعلانات ونفس الأخبار، ونفس القصص القصيرة. وقد أدى هذا إلى اختفاء العديد من اللهجات الإقليمية والمحلية، بل وبعض اللغات. وبالتدريج تصبغ أساليب التوحيد القياسي كل شيء في الدولة بنفس الصبغة، نفس محطات خدمة السيارات، نفس طراز المباني، نفس المطاعم العامة. وقد اقتضى هذا أيضاً توحيداً قياسياً لوحدات قياس الأطوال والأوزان، وللعملات النقدية المستخدمة.

انقضاض الاخصائيين

المبدأ الهام الثاني الذي شاع في جميع مجتمعات الموجة الثانية هو مبدأ التخصص.

فمع تزايد تقسيم مراحل العمل، استبدلت الموجة الثانية ابن المجتمع الزراعي القادر على القيام بعدة أعمال متنوعة، بصاحب الاختصاص الضيق، وبالعامل الذي يؤدي عملية واحدة محدودة، ويظل يكررها طوال حياته. وهكذا قام الصرح الصناعي على التخصص الشديد. ورغم أن نقاد النظام الصناعي قد أدانوا هذا، لأنه يشكل ضرراً متزايداً على بشرية العامل وإنسانيته، إلا أن التخصص شديد الضيق ظل هو الشعار السائد.

وعندما بدأ هنري فورد إنتاج طراز خاص من سيارته عام ١٩٠٨ بلغ عدد العمليات المتخصصة الداخلة في إنتاج السيارة ٧٨٨٢ عملية. وقال فورد في مذكراته، إنه من بين هذه الوظائف تحتاج ٩٨٩ وظيفة منها إلى رجال أقوياء قادرين من الناحية الجسدية، وتحتاج ٣٣٣٨ إلى ذروة القوة الجسدية العادية من الرجال. وإن معظم الوظائف الباقية يمكن أن يقوم بها أطفال ونساء، واستطرد يقول ببرود غير إنساني «ولقد وجدنا أنه من الممكن شغل ٦٧٠ وظيفة برجال مقعدين، و٢٦٣٧ وظيفة بذوي ساق واحدة من الرجال، وهناك وظيفتان يمكن إسنادهما إلى عاملين بلا ذراعين، و٧١٥ برجال ذوي ذراع واحدة، وأخيراً ١٠ وظائف يمكن أن يشغلها رجال من فاقدي البصر..». وهكذا يمكننا أن نرى كيف يقود التخصص في الوظائف إلى اعتبار الانسان مجرد أجزاء!

ولم يقتصر مبدأ التخصص هذا على الدول الرأسمالية، بل أصبح عنصراً هاماً في صناعات الدول الاشتراكية. وقد واكب نظام التخصص هذا، في الشرق والغرب، موجة صاعدة من الاخصائيين الذين يتحكمون

في كل عمليات النشاط، مما يدفع رئيس لجنة التجارة الفيدرالية بالولايات المتحدة الأميركية إلى أن يقول «لقد استولى الاخصائيون على حضارتنا .. وهم يطلقون علينا تعبير (العملاء)، ويحددون لنا (احتياجاتنا)» .. وحتى عملية الإثارة والتهيج السياسي أصبح لها اخصائيوها، فقال لينين إن الجماهير لا يمكنها أن تحقق الثورة بغير مساعدة الاخصائيين. وتحدث عما أسماه «تنظيم الثوريين»، والذي تقتصر عضويته على الأشخاص الذين يتخصصون في العمل الثوري.

الزمن = المال

والانفصال بين الانتاج والاستهلاك قاد إلى فرض تغير في الطريقة التي يتعامل بها إنسان الموجة الثانية مع الزمن.

ففي النظام الاجتماعي الذي يعتمد السوق، سواء كانت السوق مخططة أم حرة، يصبح الزمن معادلاً للمال، فليس من الممكن ترك الالات الغالية خامدة، ويجب أن تعمل وفقاً لإيقاعها الخاص. وهكذا، تبلور المبدأ الثالث للحضارة الصناعية وهو: التزامن.

وبعد انتشار المصانع، ومع التكلفة العالية للآلات، واعتمادها على العمال، اقتضى الامر أنظمة أشد دقة في ضبط الوقت، وحساب التزامن بين العمليات المختلفة. لأنه إذا تخلفت مجموعة من العمال عن إنجاز عمل معين في وقت محدد، ترتب على ذلك تعطل عمل مجموعات أخرى من العمال. وهكذا ظهرت أهمية ساعات اليد، والمنبه، وساعات الحائط

في العمل. وليس من قبيل الصدفة، أن يلقن الأطفال في المجتمعات الصناعية معرفة الوقت عن طريق الساعة، وهم في سن صغيرة، ويتمرسون على حفظ الوقت عن طريق جرس المدرسة. فالذي يدخل الفصل في الوقت المحدد، يتعود على أن يدخل بعد ذلك المصنع أو المكتب في موعده.

ثقافة لينين العملاقة

وظهور السوق كوسيط بين المنتج والمستهلك، دفع إلى الوجود بمبدأ ثالث من مبادىء حضارة الموجة الثانية، وهو مبدأ التركيز.

تركيز السكن في المدن الكبيرة حول مراكز النشاطين الصناعي والتجاري، وتركيز المجرمين في السجون، والعجزة في الملاجىء، والتلاميذ في المدارس.. بالضبط كما يجري تركيز وتجميع العمال في المصانع.. وأيضاً تركيز رؤوس الأموال في شركات كبرى واحتكارات عظيمة.

وقد اقتنع بهذا المبدأ، وسار على هداه.. المديرون في الدول الاشتراكية، وقالوا إن تركيز الانتاج يضاعف كفاءته. وتكلم لينين عن «تحويل جميع المواطنين إلى عمال وموظفين في نقابة عملاقة. هي الدولة بأكملها». وبعد ذلك بخمسين سنة، قال عالم الاقتصاد السوفياتي ليليو كينا «إن الاتحاد السوفياتي يمتلك أكبر صناعة مركزة في العالم».

كما خلقت الهوة بين الانتاج والاستهلاك في مجتمعات الموجة الثانية

حالة من عشق الضخامة وكل ما هو هائل كبير. وساد زعم يقول إن «الضخامة» مرادف «للكفاءة». وهكذا أصبح السعي نحو الوصول إلى الحدود القصوى أو العليا، المبدأ الخامس للحضارة الصناعية.

عشق الضخامة

بهذا المنطق ارتفعت ناطحات السحاب وأقيمت أضخم السدود، وشيدت أوسع الملاعب. وفي عام ١٩٦٠، كانت شركة جنرال موتورز الأميركية تستخدم ٥٩٥ ألف موظف. وفي نفس العام كانت شركة الخدمات التليفونية تستخدم ٧٣٦ ألف رجل وامرأة، ثم أصبحت في عام ١٩٧٠ تستخدم ٩٥٦ ألفاً. ونفس الأمر سارت عليه حكومات ألمانيا وبريطانيا وغيرهما من الدول الصناعية، عن طريق اندماج الشركات الصغيرة في شركات كبيرة، بزعم أن هذا سيتيح لهذه الدول أن تتحدى العملاق الأميركي.

وعشق الضخامة والسعي نحو الحدود القصوى، لم يكن فقط بدافع الحصول على الحدود القصوى من الأرباح. فقد ربط ماركس بين «زيادة حجم المنشآت الصناعية»، وبين «زيادة نمو القوى المادية لهذه المنشآت». كما قال لينين «إن المؤسسات والائتمانات والنقابات الضخمة قد أوصلت أساليب الانتاج على نطاق واسع إلى أقصى مستويات النمو والتطور». وكان أول أوامره بعد قيام الثورة السوفياتية هو دمج الحياة الاقتصادية الروسية في أقل عدد ممكن، من أكبر الوحدات الممكنة.

المركزية كفن رفيع!

وأخيراً.. سعت كل الدول الصناعية إلى تطوير المركزية، حتى أصبحت من الفنون الرفيعة! . يقول الفين توفلر «كان على مديري السكك الحديدية الأول، شأنهم شأن مديري برامج الفضاء حالياً، أن يبتكروا اساليب جديدة، فقاموا بعمل توحيد قياسى للعمليات التكنولوجية والاجور وبرامج العمل. ووضعوا تزامناً للعمليات التي تجري على بعد مئات الاميال. وخلقوا التخصصات اللازمة للعمليات والاقسام الجديدة. وقاموا بتركيز رأس المال والطاقة والبشر العاملين.. وحاربوا من أجل ان يصلوا بحجم شبكة العمل الى الحد الأقصى من الضخامة.. من أجل ان ينجزوا ذلك كله، خلقوا اشكالاً جديدة من التنظيم مبنية على مركزية المعلومات والقرارات...».

كذلك شجعت الموجة الثانية على المركزية في السياسة. وفي هذا يضرب توفلر المثل بالولايات المتحدة الأميركية وبالاتحاد السوفياتي، وبعض من الدول الأخرى. ويقول إن عملية التصنيع في الولايات المتحدة دفعت النظام السياسي نحو المزيد من المركزية، فوضعت واشنطن في يديها عدداً متزايداً من مفاتيح القوة ومن المسؤوليات، واحتكرت يوماً بعد يوم سلطة اتخاذ القرار المركزي، وانتقلت السلطة فعلاً من الكونجرس ومن القضاء إلى أكثر السلطات الثلاث مركزية: الأجهزة التنفيذية.

محطة ضخ الأموال

وموجة مركزية السياسة المتزايدة كانت أقوى في السويد واليابان وبريطانيا وفرنسا. . إلا أنها بلغت أقوى مدى لها في البلاد الصناعية الماركسية. فرغبة السوفيات في الإسراع بمعدلات التصنيع، دفعتهم إلى إنشاء أكثر المؤسسات السياسية والاقتصادية تركيزاً، واضعين حتى أصغر قرارات الانتاج في يد الهيئات المركزية.

وانسحب نفس الشيء على المال والاقتصاد. وفي هذا المجال يعتبر «البنك المركزي» رمزاً للمركزية في جميع الدول الصناعية، وتعتمد هذه الحكومات على البنك المركزي في تنظيم مستوى نشاط السوق ومعدلات هبوطها، وارتفاع الأسعار، ونتيجة لهذا حقق البنك المركزي لنفسه درجة عالية من التحكم في التخطيط القصير المدى في الاقتصاد الراسمالي.

فالمال يسري في كل شريان من شرايين المجتمعات الصناعية، الرأسمالية والاشتراكية، لهذا ظهرت الحاجة إلى محطة ضخ مركزية للمال. وفي هذا سارت البنوك المركزية، والحكومات المركزية يداً في يد. وأصبحت المركزية هي أحد المبادىء السائدة في حضارة الموجة الثانية.

هذه المبادىء الستة التي تسود المجتمعات الصناعية، الرأسمالية منها والاشتراكية، كان لا بد من ظهورها، لمواجهة الفجوة التي حدثت بين الانتاج والاستهلاك، ونتيجة للدور المتعاظم دائماً للسوق. وقد فرضت هذه المبادىء بدورها ظهور البيروقراطية، والمؤسسات البيروقراطية

الكبرى، التي وقف الفرد حيالها تائهاً، يتلفت حول نفسه.

واليوم، أصبح كل من هذه المبادىء الستة هدفاً لهجوم قوى الموجة الثالثة. وفي المقابل استعد سدنة الحضارة الصناعية في الموجة الثانية لمواجهة هذا الهجوم. . . بالضبط كما واجه سدنة الاقطاع قيام الحضارة الصناعية.

ولكي نفهم من الذي ستوضع في يده مقاليد الأمور في المستقبل، عندما تسود الموجة الثالثة انحاء العالم، يجب علينا أولاً أن نعرف بالتحديد، من الذي بيده مقاليد الأمور اليوم.

الفصل الثالث

من الذي يحكمنا؟

والان، نطـرح سؤالاً هامـاً: من هم الـذين يسيرون الأمـور في مجتمعاتنـا الحـالية؟ . من هم أصحـاب السلطـة الحقيقـة المؤثـرة في الحضـارة الصنـاعية للموجـة الثـانية؟ . . خلال الموجـة الأولـى، كان المزارع يعرف بوضوح من الذي بيده مقاليد الأمور في مجتمعه المحدود، الملك أو الاقطاعي، أو رجل الدين. لم يكن المزارع في حاجة إلى خبير في العلوم السياسية ليدله على صاحب النفوذ الفعلي في مجتمعه. ومع انتشار الموجة الثانية، ظهرت اشكال جديدة من السلطة، اشكال غامضة ومختلطة. وأصبح الفرد، عندما يتحدث عن السلطة الحقيقية التي ترسم له خطوط حياته وتتحكم في مقدراته، يستخدم تعبيرات معماة، كأن يقول «هم يريدون ذلك. . » . . ولكن، ما الذي يعنيه الفرد بكلمة «هم» ؟

لقد عمدت الحضارة الصناعية، كما رأينا. إلى تفتيت المجتمع إلى آلاف الاجـزاء المترابطـة، مصانـع، دور عبـادة، مدارس، اتحـادات تجارية، سجون، مستشفيات. . إلى آخر ذلك. وفتتت المعرفة إلى نظم تعتمد على الاخصائيين. وفتتت الوظائف إلى شظايا من فرعيات العمل المنفصلة عن بعضها، وفتتت العائلات إلى وحدات أصغر. لهذا اقتضى

الامر أن يتولى أحد ما مسألة تجميع كل ما قامت الحضارة الصناعية بتفتيته. في كيان موحد جديد.

هذه الحاجة فتحت الباب أمام انواع جديدة من الاخصائيين، الذين ينحصر عملهم في الربط بين هذه الجزئيات. واجراء التكامل. والذين يمكن أن نطلق عليهم اصطلاح «التكامليين». ونحن نجدهم في الحضارة الصناعية كمنفذين واداريين ومنظمين ورؤساء ومديرين. لقد شاع وجودُ التكامليين في كل عمل خاص وحكومي، وعلى كل المستويات الاجتماعية.. واستطاعوا أن يقنعوا الكل بأنه لاغنى عنهم.

يقول «آلفين توفلر» : في منتصف القرن التاسع عشر، فكر ماركس في أن كل من يملك ادوات الانتاج والتكنولوجيا يستطيع أن يسيطر على مكوناته، بامكان العمال أن يعطلوا الانتاج، ويستولوا على أدوات الانتاج من اصحاب العمل. وبمجرد امتلاكهم لادوات الانتاج. يمكنهم أن يحكموا المجتمع. إلا أن التاريخ قد خدع ماركس. فقد قاد الوضع إلى ظهور فئة جديدة من البشر، تقود النظام وتتكفل بتحقيق التكامل بين عناصره. وفي آخر الامر لم يسيطر اصحاب المصانع، ولا العمال. في الدول الرأسمالية والاشتراكية على السواء، ثبت أن من صعد إلى القمة هم اخصائيو التكامل.. أي أن مصدر السلطة ليس امتلاك وسائل الانتاج، ولكن التحكم في وسائل التكامل..

وحتى نفهم أدق ما يعنيه توفلر بالتكامليين. أو الاخصائيين الذين يتولون تحقيق التكامل بين عمليات الانتاج والاستهلاك. علينا أن نعود قليلاً إلى الوراء.

ففي مجال العمل، كان التكامليون الاوائل هم اصحاب المصانع والمقاولين وأصحاب المعامل.

وكان بامكان المالك عادة، مستعيناً ببعض المساعدين، أن ينسق عمل عدد كبير من الأيدي العاملة غير الماهرة، وأن يوفر التكامل بين مشروعاتهم وبين النطاق الاقتصادي الاكبر.

ولما كان المالك هو المسئول عن تحقيق التكامل للعمل في تلك المرحلة. فليس من المستغرب أن يخلط ماركس بين الاثنين. . ويعطي اهتمامه الاكبر للملكية.

لقد شهدت المشروعات تكاثراً لا يصدق لمجموعات الخبراء والمديرين الذين ظهروا بين صاحب العمل وعماله. بعد أن اصبحت العملية الانتاجية اكثر تركيباً. وبعد أن اصبح تقسيم العمل اكثر تخصصاً. ومع تضخم المشروعات الانتاجية، لم يعد بامكان الافراد بمن فيهم المالك أو كبار المساهمين، أن يفهموا العمليات الدائرة بأكملها.

ومع تزايد قوة المدير، تناقصت اهمية حملة الاسهم. وانتقلت مقاليد السلطة من يد المالك والعامل إلى يد اخصائي التكامل.

يقول توفلر إن لهذا الوضع ما يناظره في الدول الاشتراكية. ولقد اضطر لينين إلى أن يشجب البيروقراطية السوفييتية منذ عام ١٩٢١. وقال تروتسكي، من منفاه عام ١٩٣٠، بوجود خمسة أو ستة ملايين مدير، يكونون طبقة «لا ترتبط مباشرة في عمل انتاجي، ولكن تدير وتأمر وتقود وتعفو وتعاقب». وقال في اتهامه «قد تكون وسائل الانتاج في يد الدولة، ولكن الدولة نفسها في يد البيروقراطية. كذلك دعا تيتو في يوغوسلافيا إلى أن ينتبه الشعب إلى «التكنوقراطية. والبيروقراطية، عدوتي الطبقة».

آلة التكامل الكبرى

ثم يتحدث توفلر بعد ذلك عما يسميه «آلة التكامل» ، أو «ماكينة التكامل» ، فيقول: إن تحقيق التكامل لأحد المشاريع الصناعية، أو حتى لصناعة باكملها، كان جانباً صغيراً مما كان يجب أن يتم. لقد افرز المجتمع الصناعي الحديث مجموعة ضخمة من المنظمات، من اتحادات العمال وروابط التجارة، إلى المؤسسات الدينية والتعليمية، ومن المستشفيات إلى فرق الترفيه والتسلية.. وكل هذه التنظيمات تحتاج إلى أن تعمل وفق مخطط له قواعد استنبطها. وهكذا ظهرت الحاجة إلى القوانين، التي تتيح للمجالات الاعلامية والاجتماعية والتكنولوجية أن تعمل جميعاً مترابطة.

على أساس الحاجة الملحة لتكامل حضارة الموجة الثانية، طلع علينا اكبر كيان تنظيمي معروف، وهو ماكينة التكامل التي يعتمد عليها النظام بأكمله: الحكومة الكبرى.

على نسق هذه الحكومة الكبرى، قامت حكومات اخرى على مختلف مستويات المجتمع، كامتداد لهـذه الحكومـة الكبـرى. وحتى في بلاد الاقتصاد الحر، ظهرت الحاجة الشديدة للحكومة الكبرى، فهي اقدر على الاسـراع بتطـوير السـكك الحـديدية، وبنـاء الموانـىء، وشـق الطـرق والقنوات، وتنظيم خدمات البريد والبرق والتليفـون والاذاعـة، ووضـع قواعد التعامل التجاري، والقيام بالتوحيد القياسي للسوق.. إلى آخر ما تقوم به حكومات المجتمع الصناعي.

وهكذا ساد المجتمعـات الصنـاعية، الاشتـراكية والرأسمـالية، نفس النسق: شركات كبرى أو منظمـات انتـاجية كبـرى، وماكينـات حكومية هائلة: يقول توفلر: «وبدلاً من أن يمسك العمال بمقاليد وسائل الانتاج كما تنبأ ماركس، أو أن يستولي الرأسماليون على السلطة كما يميل إلى القول اتباع آدم سمث، نمت قوة جديدة تماماً، لتتحداهمـا معـاً، لقـد استولى اخصائيو السلطة على (وسائل التكامل). وعن طريقهـا أمسكوا بزمام التحكم اجتماعياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً. لقد حكم التكامليون مجتمعات الموجة الثانية..».

تحت راية الثورة

وفوق هذه الصفـوة من اخصـائيي التكامـل ظهـرت، في مجتمعـات الموجة الثانية «صفوة عليا» علـى المستـوى الأرفـع، هي المسئولـة عن تخصيص الاستثمارات. فسواء في الصناعة أو المال، في البنتاجون أو في مكاتب التخطيط السوفييتية، تقوم الصفوة العليا بتخصيص الاستثمـارات

الكبرى داخل المجتمع الصناعي، وتضع الحدود التي يلتزم بها، ويعمل في حدودها، اخصائيو التكامل.

وقد حدث مراراً وتكراراً. خلال السنوات المائة الماضية، في دولة بعد اخرى، أن هب الثوار والمصلحون يحاولون نسف جدران السلطة القائمة، لبناء مجتمع جديد على أسس العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية. ولبعض الوقت استطاعت هذه الحركات أن تعلق آمال الملايين بأحلام الحرية، كما استطاع الثوريون، من وقت لاخر، أن يتسلموا مقاليد السلطة في بلادهم. . . ومع ذلك، فقد كانت النتيجة تجيء واحدة في كل حالة. .

ففي كل مرة، وتحت راية الثورة، يتشكل نظام جديد من الصفوة والصفوة العليا. . قد تتغير بعض الوجوه، ولكن البناء الاساسي يعود ليتشكل من جديد.

ذلك لأن حضارة الموجة الثانية تحتاج إلى ذلك البناء التكاملي، وإلى اخصائيي السلطة الذين يستقرون على قمة ذلك البناء. . واحتياجها إلى ذلك لا يقل عن احتياجها إلى المصانع، والوقود، والعائلة النووية. . . فالتصنيع والديمقراطية الكاملة التي يبشر بها البعض، لا يجتمعان معاً في واقع الامر.

واليوم، بينما أخذت الموجة الثالثة للتغيير تدق على جدران هذه السلطة الادارية. بدأت في دولة بعد أخرى تظهر الشروخ في نظام السلطة هذا. وأخذت ترتفع الاصوات المطالبة بالمشاركة في الادارة، وتقاسم

اتخاذ القرار مع العمال والمستهلكين، ومساهمة المواطن في صنع ديمقراطيته المنشودة.

التخطيط الخفي

عندما نتأمل النظم السياسية. لا تتشابه دولتان من الدول الصناعية في شيء. ومع ذلك إذا نزعنا القشرة الخارجية لهذه الانظمة المتباينة، اكتشفنا عدداً من عناصر الشبه القوية وراء هذه الاختلافات. بل سنرى أن كل النظم السياسية لدول الموجة الثانية اقيمت وفقاً لتخطيط خفي واحد. وأنها انشئت وفق مزيج من افتراضات الموجة الأولى القديمة، وبعض الافكار التي شاعت في عصر الصناعة.

كان من الصعب على واضعي النظم السياسية للموجة الثانية أن يتصوروا نظاماً سياسياً مقاماً على أساس العمل ورأس المال والطاقة والمواد الخام، وليس على الأرض. لهذا بقيت الأرض وتقسيماتها في صميم قلب الحياة. ومن ثم لا يجب أن ندهش عندما نجد أن الاساس الجغرافي بقي ماثلاً في كل نظمنا الانتخابية المختلفة. ممثلو الشعب والنواب في الدول الصناعية ما زالوا ينتخبون كممثلين لسكان قطعة محددة من الأرض، وليس كممثلين لطبقة اجتماعية أو لعرق من الاعراق، أو لتقسيم من التقسيمات الاجتماعية.

ماكينة الانتخابات

لقد انبهر رجال الأعمال والمثقفون والشوريون في بداية العصر الصناعي انبهاراً كاملاً بالالة . . وعلى هذا الأساس، اقاموا العديد من نظم حياتهم على نفس الاسس التي تقوم عليها الالة، وتعمل وفقها، في هذا يقول توفلر: «المؤسسون الشوريون لمجتمعات الموجة الثانية، وقد تشبعوا بهذا التفكير الميكانيكي، وتشربوا بإيمان أعمى، واحساس عميق، بقوة وكفاءة الالات، لم يكن من الغريب أن يبتكروا مؤسسات سياسية تشترك في ملامح عديدة مع آلات مطلع العصر الصناعي. سواء كانوا رأسماليين أو اشتراكيين . . »

ومن آهم هذه الابتكارات التي يتحدث عنها توفلر، لعبة التمثيل النيابي الشائعة، والتي تنحصر مكوناتها في:

* الافراد الذين يتسلحون بأصواتهم.

* الاحزاب التي تجمع هذه الأصوات.

* الافراد والزملاء الذين بمجرد فوزهم بالاصوات يتحولون فوراً إلى «ممثلين» أو «نواب» لاصحاب الأصوات.

* الهيئات البرلمانية التي يقوم فيها النواب بانتاج القوانين على أساس التصويت.

* المنفذون رؤساء، ورؤساء وزارات، ووزراء، الذين يلقمون آلة صنع القوانين هذه بالمادة الخام، على شكل سياسات، ومن ثم يفرضون

ما يصدر من قوانين.

وللتأكيد على مبدأ استيحاء الآلة، يعيد توفلر صياغة هذه الالية، فيقول إن أصوات الناخبين تمثل الذرات. والأحزاب، التي تقوم بدور انبوبة التجميع التي تصب فيها الانابيب المختلفة، تتولى جمع هذه الاصوات من مصادرها المختلفة، وتلقمها لماكينة جمع الاصوات الانتخابية. وهذه تقوم بخلط الاصوات ومزجها وفقاً لقوة الحزب النسبية، ويكون الناتج هو ما نطلق عليه «إرادة الجماهير» وهو الوقود الأساسي الذي يفترض أنه يشغل ماكينة الحكومة.

ويرى توفلر أن النظم السياسية للموجة الثانية، مهما تحورت، تستمد عناصرها مما يسميه «صندوق عدة» الانتخابات. ويعتقد أن «صندوق العدة» هذا هو الأساس الذي يستخدم في صناعة الماكينة السياسية التقليدية في جميع الدول الصناعية. وكما يرمز المصنع إلى المجال التكنولوجي الصناعي باكمله، اصبحت الحكومة القائمة على التمثيل النيابي رمزاً لكل الدول «المتحضرة».

صندوق العدة

لم تقتصر هذه «الماكينة الديمقراطية، على المستوى القومي، بل انتقلت إلى ما تحته من المستويات الاقليمية والمحلية، حتى وصلت إلى القرى، واصغر التجمعات السكانية.. ويوجد اليوم، في الولايات المتحدة الامريكية وحدها، حوالي خمسمائة الف نائب أو مسئول عام

منتخب. و ٢٥٨٦٩ وحدة حكومية محلية في المناطق العمرانية.. كل منها له انتخاباته الخاصة. وممثلوه، واجراءاته الانتخابية.

واليوم، على مستوى العالم، تقعقع وتطقطق مئات الالاف من آلات التمثيل الانتخابي هذه، منتجة فيضاً من القوانين واللوائح والقواعد في دول الموجة الثانية. و «صناديق العدة» في كل الدول الصناعية، تكون فيما بينها، وبشكل متزايد، آلة واحدة هائلة وخفيفة، هي مصنع القوانين العالمي. ويبقى علينا أن نعرف بعد ذلك كيف يتم تحريك روافع هذه الالة العالمية وتشغيل مفاتيحها.. ومن هم اولئك الذين يقومون بتشغيله.

وهم المساواة وحكم الأغلبية

الحكومة القائمة على التمثيل والانتخاب، والتي ولدت من الأحلام التحررية لثوار الموجة الثانية. كانت تقدماً مدهشاً بالنسبة لنظم السلطة الأسبق. كانت نصراً تكنولوجياً اكثر إثارة من الالة البخارية أو الطائرة. لقد اتاحت هذه الحكومة تتابعاً منظماً، يختلف كثيراً عن حكم السلالة الوراثي، وفتحت قنوات الاتصال في المجتمع بين القاعدة والقمة، ووفرت طقساً يتيح التعامل مع الخلافات بين الجماعات والفئات المختلفة على اساس سلمي.

وبفضل تمسك هذه الحكومة القائمة على التمثيل الانتخابي بمبدأ حكم الاغلبية، وبحق كل إنسان في اعطاء صوته، ساعدت بعض الفقراء والضعفاء، في استدرار بعض المنافع من اخصائيي السلطة الذين يديرون

آلة التكامل في المجتمع. ولهذا ظهرت الحكومة بمظهر الثورة الانسانية في التاريخ.

ومع ذلك، ومنذ البداية الأولى، عجزت هذه الحكومة دائماً عن الوفاء بالتزاماتها. ولم تستطع، في أي مكان، أن تغير البناء التحتي للسلطة في الدول الصناعية، بناء الصفوة والصفوة العليا، وهكذا. تحول الانتخاب، بصرف النظر عمن يكسب فيه، إلى أداة ثقافية قوية في يد الصفوة.

عملية الدفعة الواحدة

ويعقد توفلر تشبيهاً طريفاً بالنسبة للنظام السياسي للموجة الثانية.

يقول «إذا ما نظرنا إلى النظام السياسي للموجة الثانية بعين المهندس الميكانيكي. وليس بعين العالم السياسي، ستصدمنا فجأة، حقيقة جوهرية تمر علينا عادة دون أن نلحظها». ويحكي عن هذه الحقيقة فيقول: إن المهندس الصناعي يفرق دائماً بين نوعين أساسيين من الآلات. الآلات التي تعمل بشكل متقطع. والتي تعرف باسم آلات «عملية الدفعة الواحدة». والآلات التي تعمل باستمرار والتي يطلق عليها اسم «آلات الانسياب الدائم».

مثال النوع الأول، المكبس أو آلة الكبس التي يقدم إليها العامل صفيحة المعدن لتشكلها وفقاً للمطلوب، ثم تتوقف حتى يقدم اليها صفيحة جديدة، ومثال النوع الثاني آلات مصنع تكرير البترول، التي ما أن تبدأ عملها حتى تواصله بدون توقف.

يقول توفلر إنه إذا نظرنا إلى مصنع القوانين العالمي، بما فيه من عمليات انتخاب متقطعة، وجدنا انفسنا وجهاً لوجه مع عملية «دفعة واحدة» تقليدية. فالجمهور يسمح له بأن يختار بين المرشحين في وقت محدد، وبعده تتوقف «ماكينة الديمقراطية» عن العمل حتى موعد الانتخابات القادمة.

وهو يقارن هذا بتيار التأثير المتواصل، المنساب من مختلف منظمات اصحاب المصالح وجماعات الضغط. وباعة السلطة. ويقول إن الصفوة خلقت لنفسها آلة قوية من آلات «الانسياب الدائم»، تعمل إلى جانب آلة الانتخابات المتقطعة، وتكون في كثير من الاحيان متناقضة معها. ولا يمكن أن نفهم كيف تتم ممارسة سلطة الدولة واقعياً في مصنع القوانين العالمي، إلا إذا نظرنا إلى هاتين الألتين جنباً إلى جنب.

وقاد مبدأ الانتخاب والتمثيل السياسي أخيراً، إلى ابتكار أداة أخرى أكثر فاعلية للتحكم الاجتماعي ذلك لأن مجرد اختيار بعض الافراد لتمثيل الاخرين، يضيف أعضاءاً جدداً لطبقة الصفوة. فالافراد الذين يتم انتخابهم لا يكتفون بمجرد التمثيل السياسي لمن انتخبوهم بل يدخلون كوسطاء بينهم وبين الصفوة في مجال العمل والمجال الحكومي، مما يحولهم إلى اعضاء في صفوة اخصائيي التكامل. ويجعل منهم، شاءوا أم أبوا، اخصائيين في السلطة.

ولكي نرى الصورة بشكل أوضح علينا أن نرجع قليلاً إلى الوراء لنلخص ما سبق أن قلناه. نقول إننا أمام حضارة تعتمد أساساً على وقود

الحفريات، وعلى انتاج المصانع، والاسرة النووية، والشركات الكبرى، والتعليم الجماعي، ووسائل الاتصال الجماهيري. حضارة تقوم على فجوة يتزايد اتساعها بين الانتاج والاستهلاك، ويديرها نظام من الصفوة مهمته خلق التكامل بين هذه العناصر. في هذا النظام تعتبر الحكومة القائمة على التمثيل النيابي هي المعادل السياسي للمصنع. والحكومة في ذاتها عبارة عن مصنع كبير لانتاج القرارت الجماعية المتكاملة.. وكما في معظم المصانع تتم ادارة الحكومة من أعلى.. ومثل معظم المصانع، تكون عرضة للهجمات المتزايدة للموجة الثالثة.

المدينة الفاضلة الفاشلة

يورد توفلر واقعة عن جزيرة تدعى «آباكو» تعداد سكانها ٦٥٠٠ شخص وتتبع جزر البهاما، وتقع في مواجهة شاطىء فلوريدا.

منذ عدة سنوات صممت مجموعة من رجال الاعمال الامريكيين، وتجار السلاح، ودعاة الاقتصاد الحر، على أن الوقت قد حان لكي تعلن آباكو استقلالها!!..

وتلخصت خطتهم في الاستيلاء على الجزيرة والخروج بها من سلطة حكومة البهاما، عن طريق وعد قطعوه لكل واحد من السكان الاصليين للجزيرة بمنحه أربعة آلاف متر مربع من أرض الجزيرة بعد نجاح الثورة!.. (وكان هذا يتيح لهؤلاء المغامرين الحصول على باقي أرض الجزيرة، والبالغ مساحته اكثر من ألف مليون متر مربع). كان حلم هؤلاء

المغامرين هو إقامة مدينة فاضلة على الجزيرة، لا تخضع لأي نوع من أنواع الضرائب، يستطيع أن يلجأ اليها الاغنياء من رجال الاعمال الذين يخافون شبح الاشتراكية.

إلا أن مواطني آباكو لم يظهروا حماساً للمشروع، فتوقف العمل فيه.

يقول توفلر: «في عالم تتصارع فيه الحركات القومية على السلطة، وتزعم ١٥٢ دولة عضوية ذلك الاتحاد التجاري للأمم، المعروف باسم الامم المتحدة، تخدم هذه الحركة، التي تتضمن محاكاة مضحكة، غرضاً مفيداً.. إنها تدفعنا إلى تحدي مبدأ القومية لذاته.. هل يمكن أن يصنع ٦٥٠٠ شخص من أبناء آباكو دولة، سواء كانت ممولة من رجال الاعمال أم لا؟ ... وإذا كانت سنغافورة التي تتكون من ٢,٣ مليون مواطن تعتبر دولة، فلماذا لا تكون نيويورك بما فيها من ثمانية ملايين، دولة هي الاخرى؟ .. وإذا حصلت بروكلين على قاذفات قنابل نفاثة، هل يمكن أن تصبح دولة؟ .. رغم أن هذه التساؤلات قد تبدو عبثية، إلا أنها ستأخذ دلالات جديدة مع ضربات الموجة الثالثة، الموجهة إلى صميم أساس حضارة الموجة الثانية.. وإلى أن نستطيع اختراق الغلاف الضبابي المحيط بموضوع القومية والوطنية، لن نتمكن من أن نعقل التناقضات الكائنة بين حضارتي الموجتين الأولى والثانية، في الوقت الذي تضربهما فيه معاً الموجة الثالثة..!

السوق القومية

قبل أن تبدأ الموجة الثانية زحفها عبرأوروبا،لم تكن معظم مناطق العالم قد ترابطت على شكل دول، ولم تكن الحدود واضحة تماماً بين المقاطعات والامارات، ولم تكن قد تحددت معالم سيطرة الدولة، أو تحدد شكل التحكم السياسي في نمط قياسي.

ولما كان من المستحيل تحقيق التكامل الاقتصادي بدون التكامل السياسي، لذلك كان من الصعب أن يمارس رجال الاعمال والصناعة نشاطهم خلال حضارة الموجة الثانية، دون ظهور الوحدات السياسية المناظرة للوحدات الاقتصادية. وعندما بدأت مجتمعات الموجة الثانية في بناء اقتصادها القومي، حدث تحول أساسي في وعي الجماهير. فقد تضاعف لديهم الاحساس بالمحلية، وتصاعد التيار القومي.

وهذا هو سبب ما ساد انحاء العالم الصناعي في القرن التاسع عشر من موجة حماس للقومية. ألمانيا التي كانت تتكون من ٣٥٠ إمارة صغيرة، شعرت بالحاجة إلى أن تتجمع في سوق قومية واحدة.. وحدث نفس الأمر في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا. وترنم الشعراء بالوطن، وعملوا على إذكاء الروح القومية. وراح المؤرخون يبحثون عن الروابط التاريخية، ويطرحون سير قدامي الأبطال. وعمل المفكرون على جمع شذرات الفنون والآداب التي يمكن أن تنسب للوطن الجديد.. حدث كل هذا بالتحديد، عندما جعله التصنيع واجباً ضرورياً.

يقول توفلر «بمجرد أن نفهم حاجة الصناعة إلى التكامل، يتضح لنا

على الفور معنى الوضع القومي. فالأمم ليست وحدات روحية كما قال شبنجلر، ولا هي تجمعات عقلانية أو أرواح اجتماعية، وليست الأمة ميراثاً غنياً من الذكريات كما وصفها رينان، أو رؤية مشتركة للمستقبل كما حددها اورتيجا. . إن ما نسميه دولة حديثة، هو ظاهرة من ظواهر الموجة الثانية. . ولم يصنع الدولة الحديثة إلا التحام النظام السياسي الموحد بالاقتصاد الموحد. .

الاستعمار الحقيقي

ومن الواضح أنه لم يحدث أن انتشرت حضارة جديدة بلا صراع. لقد شنت حضارة الموجة الثانية حربها الشاملة على عالم الموجة الأولى، فانتصرت، وفرضت ارادتها على الملايين والبلايين من البشر.

وقبل الموجة الثانية بزمن طويل، ابتداء من القرن السادس عشر، بدأ حكام أوروبا في بناء امبراطورياتهم الاستعمارية الواسعة. . الاسبان والفرنسيون والبريطانيون والهولنديون والبرتغاليون والايطاليون. . لقد انتشروا في انحاء العالم يستعبدون أو يفنون شعوباً بأكملها، ويضعون أيديهم على مساحات واسعة من الأرض، يرسلون منها الهدايا إلى حكامهم.

إلا أن هذا كله يبدو بلا معنى، إذا ما قيس بما حدث بعد ذلك. فالكنوز التي كان هؤلاء المغامرون يرسلونها إلى بلادهم كانت غنائم فردية، يعتمد عليها في تمويل الحروب والثروات الخاصة، وبناء القصور

الشتوية والصيفية، واقامة المهرجانات الصاخبة. . كانت تخدم اسلوب حياة البلاط الغارقة في الفراغ، والمفتقرة إلى العمل. . . إلا أن هذا لا يشبه في شيء اقتصاد الدول الاستعمارية المكتفي ذاتياً.

كان استعمار الموجة الأولى تافهاً، لكن الموجة الثانية حولت ذلك الاستعمار التافه إلى استعمار قوي ضخم، لم يعد الاستعمار نشاطاً هامشياً، بل أصبح عنصراً متكاملاً في البناء الاقتصادي الاساسي للدول الصناعية تعتمد عليه حياة الملايين من عمالها.

وراء كل النشاط الاستعماري، مهما تعددت مصادرة ومبرراته، تكمن حقيقة واضحة، وهي أن حضارة الموجة الثانية لا يمكن أن تعيش في عزلة. إنها تحتاج بشكل ملح إلى الموارد الرخيصة من الخارج. كما تحتاج إلى سوق عالمية متكاملة تستطيع من خلالها أن تصدر انتاجها.

وعالم الموجة الثانية بتعاملته باقي العالم كمضخة بترول وغاز، أو مزرعة، أو منجم، أو مرعى، أو مصدر للعمالة الرخيصة، أحدث تغييرات عميقة في الحياة الاجتماعية لسكان الدول غير الصناعية. الحضارات التي عاشت في أمان لالاف السنين، مكتفية ذاتياً، تنتج ما تحتاج إليه من الطعام، وجدت نفسها تنجرف مرغمة الى نظام التجارة العالمي. . وكان عليها إما أن تتاجر أو تفنى. .

ولم يكن خبراء التكامل في كل مكان على نفس القدر من القوة والكفاءة، فدخلت دول الموجة الثانية، فيما بينها، في حروب دامية للسيطرة على النظام الاقتصادي العالمي الذي كان آخذاً في التشكل. وكان من نتيجة هذه الحروب أن انخفض معدل النمو في التجارة العالمية. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، اصبحت دول أوروبا الغربية ترقد وسط الدخان والحطام، وتحولت المانيا إلى أرض خراب، وقاسي الاتحاد السوفييتي من خسائر فادحة، معنوية ومادية، أما اليابان فقد تمزقت صناعتها. . من بين كل هذه القوى الصناعية العظمى، كانت الولايات المتحدة الامريكية هي الوحيدة التي خرجت باقتصاد سليم.

هذا بالاضافة إلى أن حالة الضعف التي خرجت بها القوى الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية، شجعت المستعمرات، واحدة بعد الاخرى، على المطالبة باستقلالها، وحتى قبل أن تتوقف آخر طلقات مدافع الحرب، كان من الواضح أن الاقتصاد الصناعي للعالم كله يحتاج إلى اعادة تشكيل، على أسس جديدة بعد الحرب.

وهكذا، تكفلت دولتان باعادة تنظيم وتحقيق تكامل نظم الموجة الثانية: الولايات المتحدة الامريكية، والاتحاد السوفييتي.

استطاعت الولايات المتحدة الامريكية، عن طريق صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة، أن تقيم بناء تكاملياً واحداً للتجارة العالمية. وقد تمكنت من التحكم في هذا

النظام منذ عام ١٩٤٤ ، وحتى سبعينيات هذا القرن، لقد استطاعت الولايات المتحدة الامريكية أن تحقق التكامل الشامل بين اخصائيي التكامل في الدول الاخرى.

السوفييت . . ودوأمة النظام النقدي

إلا أن قيادة الولايات المتحدة الامريكية لعالم الموجة الثانية، واجهت تحدياً متزايداً بقيام الاتحاد السوفييتي، الذي ظهر بصورة المعادي للاستعمار، وصديق الدول التي تعاني منه.

لقد نظر لينين إلى الاستعمار باعتباره ظاهرة رأسمالية خالصة. وقال إن الدول الاشتراكية وحدها هي القادرة على تحرير شعوب المستعمرات مما يقع عليها من ضغط، ومما تعانيه من بؤس. لأنّ الاشتراكية لا تدخل في تركيبها الحاجة إلى الاستغلال الاقتصادي.

لكن توفلر يرى رأياً آخراً، وهو يقول «ما فات على لينين، هو أن العديد من القواعد المعمول بها في الدول الصناعية الرأسمالية، تعمل أيضاً في الدول الصناعية الاشتراكية. فقد اصبحت هذه الاخيرة جزءاً من النظام النقدي العالمي، واقامت هي أيضاً اقتصادياتها على الفصل بين الانتاج والاستهلاك، ومن ثم احتاجت هي الاخرى إلى السوق (وإن لم تكن سوقاً موجهة نحو الربح بالضرورة). واحتاجت إلى الربط بين المنتج والمستهلك، كما احتاجت هي الاخرى إلى المواد الخام من خارجها لتغذي بها آلتها الصناعية. لهذه الأسباب مجتمعة احتاجت هذه الدول

أيضاً إلى النظام الاقتصادي العالمي المتكامل، حيث تحصل على ضرورياتها من الخارج، وتبيع انتاجها للخارج.. !! ».

وبدخول الاتحاد السوفييتي كجزء من النظام النقدي العالمي، اصبح عليه أن يقبل الطرق «المرعية» في انجاز الأعمال، وأصبح مقيداً بالتعريفات المعمول بها للكفاءة والقدرة الانتاجية.. نفس التعريفات التي قد يكون ادانها من قبل باعتبارها من أصول الرأسمالية. وهكذا تضطر الدول التي تدخل النظام النقدي العالمي أن تقبل بطريقة لا شعورية، المضامين والتصنيفات والتعريفات والطرق المحاسبية ووحدات القياس الاقتصادية المعمول بها في ذلك النظام.

كما أنشأت الدول الرأسمالية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، تحرك السوفييت لتحقيق حلم لينين في نظام اقتصادي عالمي متكامل واحد، بانشاء مجلس المعونات الاقتصادية المتبادلة، والمعروف باسم «كوميكون»، والذي يلزم الدول الداخلة فيه بالتعامل فيما بينها، ويعطي الاتحاد السوفييتي حق اعتماد خطط التنمية لهذه الدول.

• • •

والان، يبدو لنا التصميم المعروض واضحاً. لقد قسمت حضارة الموجة الثانية العالم ونظمته في شكل دول محددة. ونظراً لحاجتها إلى مواد باقي انحاء العالم، جذبت مجتمعات الموجة الأولى، وما بقي من المجتمعات البدائية، إلى نظامها النقدي، وخلقت سوقاً عالمية متكاملة.

إلا أن الحركة الصناعية المتفشية كانـت اكثـر من نظـام اقتصـادي أو سياسي أو اجتماعي. . كانت أيضاً طريقة في الحياة وأسلوباً في التفكير، ولهذا افرزت ما يمكن أن نطلق عليه «عقلية الموجة الثانية».

هذه العقلية. تقف اليوم كعقبة أساسية في سبيل تحقيق حضارة الموجة الثالثة بشكل فعال.

الفصل الرابع

الرؤية الصناعية . .
أيديولوجية عظمى للمعسكرين

عندما مدت حضارة الموجة الثانية أذرعها الأخطبوطية، لتلتف حول العالم، مغيرة كل ما تصل إليه، حملت معها ما هو أكثر من التكنولوجيا والتجارة. والموجة الثانية، عند اصطدامها بحضارة الموجة الأولى، لم تخلق فقط واقعاً جديداً للملايين من سكان الأرض، لكنها خلقت طريقة جديدة للتفكير في الواقع، ونظرة خاصة للحياة.

لقد جلب ذلك الاصطدام بقيم ومضامين وأساطير وأخلاقيات المجتمع الزراعي تعريفات جديدة، للعقيدة، والعدالة، والحب والسلطة والجمال. وجاءت الموجة الثانية بكل جديد من الأفكار والمواقف ووحدات القياس وأزاحت المفاهيم القديمة حول الزمان والمكان والفضاء والمادة والسَّببية، وحلت محلها مفاهيم جديدة.. باختصار، خلقت ما يمكن أن نطلق عليها اسم «الرؤية الصناعية». هذه الرؤية الصناعية هي التي صيغ على أساسها المنهج الدراسي لتلاميذ الحضارة الصناعية، والتي فرض عليهم أن يفهموا العالم من خلالها.

في البداية، لم يكن هناك ما يوحي عند النظرة الأولى بوجود تيار أساسي سائد. وبدا الأمر كما لو انه ليس أكثر من صراع بين تيارين ايديولوجيين قويين. وعند منتصف القرن التاسع عشر، كان لكل دولة صناعية جناحان

واضحان بشدة، جناح يساري وجناح يميني. . دعـاة الاشتـراكية ودعـاة الفردية والاقتصاد الحر.

وقد اقتصرت معركة الايديولوجيات في بداية الأمر على الدول الصناعية وحدها لكنها سرعان ما انتشرت بعد ذلك في أنحاء الكرة الأرضية. ومع قيام الثورة السوفييتية عام ١٩١٧، وتبلور التنظيم المركزي لاجهزة الدعاية الموجهة بالكلمة، تفاقم صراع الايديولوجيات واحتـدم. وعندمـا كادت الحرب العالمية الثـانية تنتهـي، تصـدى الاتحـاد السوفييتـي والـولايات المتحـدة الأمـريكية، كل بشروطـه، لمحاولـة تحقيق التكامـل للسـوق العالمية، أو لمعظمها. وانفق الجانبان ميزانيات هائلة لنشر سياساتهما بين أبناء الدول غير الصناعية.

في أحد الجانبين كانت النظم الاشتراكية، وفي الجانـب الآخـر كان هناك ما يطلق عليه النظم الديمقراطية الحرة. فنصبت المدافع، ورصت القنابل، استعداداً للتدخل كلما استحال استمرار الحوار المنطقي. لكن الذي لم يلحظه إلا القلة، وسطآتون حرب الدعاية هذه، أنه بينما كان كل جانب يدعـو إلى ايديولوجية مختلفة، كان الجانبان معاً يناديان ويحضان أساساً على «ايديولوجية عظمى» واحدة. وإذا كانـت استخلاصـات كل جانب، وبرامجـه الاقتصـادية ومبادئـه السياسية مختلفـة جذرياً، الا أن العديد من الافتراضات التي بدأ بها كانت واحدة، بالضبـط كما حدث في الصراع المحتدم بين البروتستانت والكاثوليك، في الوقت الذي يبشر فيه كل منهما بالسيد المسيح.

الماركسيون وأعداء الماركسية الرأسماليون، والأمريكيون والروس، كلهم تقدموا إلى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، حيث المناطق غير الصناعية من العالم، يحملون جميعاً نفس المجموعة من الفروض الأساسية، يبشرون جميعاً بتفوق الحضارة الصناعية على كل الحضارات، ويلعبون دور الحواريين المتحمسين للرؤية الصناعية.

وكانت نظراتهم للعالم، التي عمدوا إلى اشاعتها، مبنية على ثلاث عقائد متبادلة التأثير، نابعة من الرؤية الصناعية. . . ثلاثة أفكار ربطت بين جميع دول الموجة الثانية، وفرقت بينها وبين باقي دول العالم.

أول هذه الأفكار له صلة بالطبيعة فبينما يختلف الاشتراكيون مع الرأسماليين، بعنف في أغلب الأحيان، حول طرق الاستفادة من ثمار الطبيعة، فإن كلا منهما نظر إلى الطبيعة بنفس الطريقة. . لقد آمن كل منهما بحقيقة أن الطبيعة شيء موجود في انتظار من يستغله.

ورغم أن الحضارات الأسبق لم تكن رفيقة بالطبيعة، ورغم ما كان يحدث من استغلال للأرض المزروعة باجتثاثها أو حرقها، ورغم ما كان يجري من قطع لأشجار الغابات، إلا أن قدرة تلك الحضارات على التخريب كانت محدودة. لم يكن هناك ما يدفع أبناء تلك الحضارات إلى وضع ايديولوجية خاصة تبرر التخريب الذي يحدثونه.

ولكن ما أن حلت حضارة الموجة الثانية، حتى اندفع الرأسماليون

الصناعيون إلى ابتزاز الموارد الطبيعية على أوسع نطاق. . نفثوا السموم القاتلة في الغلاف الجوي للأرض، وقطعوا أشجار غابات واسعة، يحيلون مناطق بأكماها إلى أرض جرداء من أجل الربح، دون التفكير في عواقب هذا على المدى الأبعد. وكانت فكرة ان الطبيعة ما وجدت إلا لكي يستغلها البشر، هي التبرير العقلي لكل ما اظهروه من قصر نظر وأنانية.

لا ينسحب هذا على الرأسماليين وحدهم فإن رجال الصناعة الماركسيين، رغم اقتناعهم ان الربح هو أساس كل الشرور في المجتمع، تصرفوا بنفس الطريق. لقد كان الصراع مع الطبيعة في صميم سياستهم.

وهكذا، نجد على جانبي الانقسام الأيديولوجي في العالم، نفس الصورة: البشرية في مواجهة الطبيعة. . البشر يسعون إلى السيطرة على الطبيعة واستغلالها حتى النهاية. . هذه الحقيقة تعتبر من مفاتيح مكونات الرؤية الصناعية، أو الايديولوجية العليا التي يستمد منها الماركسيون وأعداء الماركسية افتراضاتهم.

سيادة الانسان

الفكرة الأساسية الثانية من أفكار هذه الايديولوجية العليا تمضي بناء خطوة أخرى في هذا الصدد، فهي لا تكتفي باعتبار الانسان مسئولا عن الطبيعة، ولكنها تضعه أيضاً على قمة عملية التطور الطويلة، التي مرت بها الكائنات على سطح الأرض.

ورغم أنه كانت هناك عدة نظريات قديمة في التطور، إلا ان دارون

الذي ظهر في منتصف القرن التاسع عشر، والذي نشأ في أكثر الدول الصناعية تطوراً حينذاك، هو الذي قدم الأساس العلمي لسيادة الانسان على باقي الكائنات. لقد تكلم عن مبدأ «الانتخاب الطبيعي» الذي تطبقه الطبيعة بطريقة عمياء. تكلم عن عملية حتمية تجتث بلا رحمة الأشكال الضعيفة وقليلة الكفاءة من الحياة. قال دارون إن الكائنات التي اجتازت مثل هذه الامتحانات، وفقاً لهذا التعريف، هي أنسب الكائنات.

ورغم ان دارون في نظريته هذه كان يتكلم عن التطور البيولوجي، إلا أن أفكاره كانت منطلقاً لتطبيقات اجتماعية وسياسية، أسرع آخرون إلى القيام بها. فتكلم الاجتماعيون الدارونيون عن مبدأ انتخاب طبيعي يفعل فعله في المجتمع أيضاً، وأن أكثر الناس غنى وقوة، بفضل هذا التفكير، هم أنسب الناس وأكثرهم استحقاقاً.

وفقاً لهذا المبدأ، اعتبرت الحياة الصناعية أعلى مرتبة في التطور، بالنسبة للمجتمعات غير الصناعية التي تحيط بها. وباختصار، اعتبرت حضارة الموجة الثانية أسمى الحضارات المعروفة.

لم تكتف الفلسفة الدارونية الاجتماعية بتبرير وجود الرأسمالية، بل فلسفت قيام مبدأ الاستعمار. . فقد كان النظام الصناعي الآخذ في التوسع، محتاجاً إلى الشرايين التي تغذيه بالموارد الرخيصة. وكانت هذه الفلسفة تقدم تبريراً أخلاقياً لاستنزاف هذه الموارد، بأقل الأسعار من المجتمعات الأخرى، حتى لو كان ثمن ذلك القضاء على المجتمعات الزراعية، وما اطلقوا عليه المجتمعات البدائية.

شعار التقدم

وكان مبدأ «التقدم» هو المبدأ الجوهري الثالث للرؤية الصناعية، والذي كان يربط بين مبدأي الطبيعة والتطور، ويعتمد على فكرة تقول إن التاريخ يندفع، بلا رجعة، نحو حياة أفضل للبشر.

وإذا كانت لفكرة «التقدم إلى الأفضل» هذه ارهاصاتها السابقة على عصر التصنيع، إلا انها لم تصبح شعاراً شائعاً إلا مع تقدم وزحف الموجة الثانية.

ما أن سادت الموجة الثانية أنحاء أوروبا، حتى ارتفعت آلاف العقائر بالأغاني التي تمجد «التقدم»، ابتداء من ليبنتز وثارجوت وليسنج وجون ستيوارت ميل، إلى هيجل وماركوس وداروين.. كلها أغان تنبض بالتفاؤل العالمي. واقتصر النقاش حول ما إذا كان «التقدم» حتمية نافذة، أم انه يحتاج إلى أن تمتد له يد المساعدة من الجنس البشري.. أما «التقدم» فقد كان الجميع يتفقون عليه. لقد هلل للعقيدة الجديدة، وبشر بها كل الناس، المؤمنون والملحدون، الطلبة والأساتذة، السياسيون والعلماء. وقام الرأسماليون وقوميسييرات الاشتراكية معاً، بالتهليل لكل مصنع جديد، وكل انتاج جديد، وكل مجمع سكني جديد، وكل طريق أو سد جديد.. هللوا لذلك باعتباره مثلاً على التقدم الذي لا يقاوم من السيء الي الجيد. ومن الجيد الى الأجود. وهكذا شاع شعار «التقدم» لكي يعطي تبريراً لكل ما يصيب الطبيعة من اضرار، ولكل غزو استعماري للحضارات «الاقل تقدماً».

يقول الفين توفلر على مدى حضارة الموجة الثانية، كانت ذخيرة دعاة الصناعة في شرحها وتبريرها، هي هذه المضامين الثلاثة الرئيسية: الحرب ضد الطبيعة. وأهمية التطور، ومبدأ التقدم... وبهذا، يمكننا القول بأن حضارة الموجة الثانية، من خلال نضوجها، خلقت صورة جديدة تماماً للواقع مبنية على افتراضاتها الخاصة المتميزة حول الزمان والمكان والسببية... جامعة شذرات من الماضي، ترصها إلى جوار بعضها بطرق جديدة، معتمدة في ذلك على التجريب. إنها بذلك قد غيرت، بعنف وقسوة الطريقة التي اعتاد الناس أن يتقبلوا بها العالم من حولهم، والتي اعتادوا أن يتصرفوا بها في حياتهم اليومية.

الزمان.. كخط مستقيم

لقد رأينا فيما سبق كيف اعتمد انتشار الصناعة على التوقيت الدقيق للسلوك البشري وفقاً لايقاع الآلة، بحيث أصبح التزامن أحد المبادىء الرئيسية لحضارة الموجة الثانية. وكيف ظهر أفراد المجتمع الصناعي لأبناء المجتمعات الأخرى كمجموعة من البشر الذين قد استعبدهم الزمن، لا يفتأون يتطلعون إلى ساعاتهم طوال اليوم.

فأبناء الريف لا يحتاجون من الزمن إلا ما يكفي لمعرفة موعد الزرع والحصاد، لهذا لم يشعروا بالحاجة إلى استنباط وحدات زمنية صغيرة كالساعات والدقائق والثواني. المزارع يحدثك عن الذهاب إلى الحقل في الضحى، أو اللقاء في العصر، لكن المجتمعات الصناعية شعرت بحاجتها إلى تحديد الوقت بدقة شديدة، مما قاد إلى ابتداع وحدات

قياسية جديدة، تفتت الثانية إلى أجزاء أدق، يمكن تطبيقها وتعميمها في كل مكان.

إلا أن الحضارة الصناعية لم تقف عند حد تقطيع الوقت إلى وحدات صغيرة جداً، بل عمدت إلى وضع هذه الأجزاء الدقيقة من الوقت على خط مستقيم يمتد خلفاً إلى الماضي وأماماً إلى المستقبل.. لقد ابتدعت الحضارة الصناعية ما يسمه الفين توفلر «الزمان الخطي» ويقول إنه من فرط تشبع أبناء الحضارة الصناعية بهذا التصور، يصعب عليهم مناقشته أو تخيل تصور آخر للزمن.

علماً بأن العديد من المجتمعات السابقة للمجتمع الصناعي، وبعض مجتمعات الموجة الأولى التي ما زالت قائمة حتى الآن تنظر إلى الزمن باعتبار أنه يمضي في دائرة وليس على امتداد خط مستقيم. الزمن عند أبناء المايا والبوذية والهندوسية دائري متكرر والتاريخ عندهم يعيد نفسه بطريقة لانهائية. ويظهر هذا في عقيدتهم حول التناسخ، وحلول الأرواح في أجساد جديدة، بحيث تتكرر دورة الحياة بشكل متواصل.

الذي يهمنا تسجيله في هذا الصدد أن الزمن الخطي هو أحد مكونات الرؤية الصناعية للتطور والتقدم. فالزمن الخطي هو الذي يجعل فكرة التقدم ومبدأ التطور مقبولين ومطلوبين ومقنعين، لأنه إذا كان الزمن دائرياً وليس خطياً، وإذا كانت الأحداث ترتد على أعقابها بدلاً من أن تتحرك في اتجاه وحيد، فإن ذلك سيعني أن التاريخ يكرر نفسه، وأن ما يجري من تطور وتقدم ليس أكثر من وهم.. مجرد ظلال على حائط الزمان.

وكما أثرت الحضارة الصناعية على رؤيتنا للزمن، كان عليها أن تعيد تركيب المكان ليناسب الرؤية الصناعية الحديثة.

التزامن المكاني

قبل ظهور حضارة الموجة الأولى، عندما كان أجدادنا القدامى يعتمدون على الصيد والرعي وصيد الأسماك، كانوا يبقون في حالة تحرك دائم. القبيلة التي كانت تتكون من خمسين رجلاً وامرأة وطفلاً، كانت تحتاج إلى السعي في أرض تمتد مئات الكيلومترات في كل عام؛ لكي تحصل على طعامها في ظروف مواتية.

وعلى العكس من ذلك خلقت حضارة الموجة الأولى أجيالاً ضنينة في استخدامها واستغلالها للأرض. فنجد الانسان وقد أقلع عن الحياة البدوية بما فيها من ارتحال دائم، اتجه إلى زرع الحقول، والاستقرار الدائم في مكان واحد. وعندما بدأت ارهاصات الحضارة الصناعية، كانت الحقول الواسعة تحيط بمجموعات متجاورة متزاحمة من أكواخ الفلاحين. وفيما عدا قلة من التجار والدارسين والجنود، كان معظم الأفراد يعيشون حياتهم كلها في نطاق محدود للغاية. وفي هذا يقول المؤرخ ج. هيل إن متوسط أطول رحلة كان يقوم بها معظم أبناء المجتمع الزراعي على مدى أعمارهم لا يزيد على ٢٥ كيلومتراً.

وما أن سادت العاصفة الصناعية انحاء أوروبا في القرن الثامن عشر، حتى أعادت ثانية حياة الامتداد المكاني الواسع، الذي بلغ مداه حالياً بحيث شمل الفضاء الخارجي. فخلال الحضارة الصناعية، كان يجري

نقل البضائع والبشر والأفكار عبر عشرات الألاف من الكيلومترات، كما اعتاد الأفراد قطع المسافات الطويلة جداً، بحثاً عن العمل. أما الانتاج، فبعد أن كان منتشراً على نطاق واسع في الحقول، أصبح الان مركزاً في المدن.

واقتضى الامر ترابطاً مركباً بين المدينة والريف. سيل متدفق من الطعام والطاقة والمواد الخام والبشر يندفع من الريف إلى المراكز الحضارية. وفي نفس الوقت، يتدفق من هذه المراكز سيل من البضائع المصنعة والمعدات والافكار والقرارات المالية في اتجاه الريف. وقد حرصت الحضارة الصناعية على أن تحقق تكاملاً وترابطاً دقيقاً بين هذين التيارين في الزمان والمكان.

وفي اطار المدن ذاتها، احتاج الأمر إلى العديد من الأشكال المكانية، وأصبح مطلوباً من المهندسين المعماريين أن ينشئوا المكاتب والبنوك وأقسام الشرطة والمصانع ومحطات السكك الحديدية والمتاجر والسجون ومراكز الاطفاء والمستشفيات والمسارح. هذه الانماط العديدة في شكلها، كان من الضروري أن يتم ترتيبها فيما بينها بطريقة وظيفية. كان لا بد من تحقيق التوافق المكاني، والتكامل، في مواقع المصانع، والطرق التي بين البيوت والمتاجر، ومواقع المستشفيات، والمدارس، ومحطات الطاقة، وشبكات أنابيب المياه، وخطوط التليفون..

هذا التوافق المكاني الملحوظ بين الفراغات المتخصصة، والذي كان ضرورياً لضمان توجه الفرد المناسب إلى المكان المناسب في الوقت

المناسب، هذا التوافق هو المناظر المكاني للتزامن الزماني. . وهو ما يمكن أن نطلق عليه التزامن المكاني.

عصر الخرائط التفصيلية

لقد جلبت تغيرات الموجة الثانية معها أيضاً تضاعفات وتحديدات مرسومة بدقة للحدوذ المكانية. فحتى القرن الثامن عشر كانت حدود الامبراطوريات في أغلب الأحيان، غير واضحة. ولأن الكثير من المساحات الواسعة لم تكن مسكونة بالبشر، كان التحديد الدقيق غير مطلوب. ومع تزايد السكان، واتساغ التجارة، وتكاثر المصانع في أنحاء أوروبا، بدأ العديد من الحكومات في رسم خرائطدقيقة لحدودها. ومن ثم تحددت المناطق الجمركية بوضوح أكبر. كذلك تم رسم حدود الممتلكات العامة والخاصة بعناية. وظهرت الأسوار وعلامات التقسيم والحدود وخرائطتسجيل الأرض.

وكما قادت ضرورة القيام بالأعمال في وقت معين إلى خلق المزيد من تحديدات ومقاييس الزمن، تزايدت يوماً بعد يوم الحدود التي تضبط المكان. وباختصار، وجدت حركة النزوع إلى الزمان الخطي، ما يقابلها بالنسبة للمكان.

وفي جميع المجتمعات الصناعية، اشتراكية ورأسمالية، شرقية وغربية، صار التخصص في المكان المعماري، ورسم الخرائط التفصيلية، واستخدام الزي الموحد، والاتفاق على وحدات القياس

الدقيقة، وقبل هذا وذاك فلسفة الخطزمانياً، ومكانياً، صارت جميعها ثابتاً أساسياً في الرؤية الصناعية.

ما هي خامة الكون؟

لم تقتصر حضارة الموجة الثانية على بناء صورة جديدة للزمن والمكان، واستخدام هذه الصورة في تشكيل الحياة اليومية، بل بشرت بإجاباتها الخاصة عن السؤال الأبدي الذي راود دائماً فكر البشر: ما هي الخامة التي تتكون منها الأشياء التي يضمها الكون؟. كانت كل ثقافة تخترع أساطيرها وتشبيهاتها الخاصة في محاولة للاجابة عن هذا السؤال. بعض المجتمعات تصورت الموجودات جميعاً كأجزاء من كل واحد، والبعض الاخر لم يأخذ بهذه الكلية الشاملة بل نظر إلى الكون باعتباره كيانات جزئية مستقلة.

وقبل قيام الصناعة بالفي سنة، طرح ديموقريطس فكرته الغربية التي تقول إن الكون لا يتكون من كيانات كلية غير متميزة، ولكنه يتكون من جسيمات دقيقة متميزة، لا يمكن تحطيمها أو تبسيطها، وهي لا ترى أو تتجزأ. وقد أطلق اسم «الذرات» على هذه الجسيمات.

إلا أن النظرية لم تصبح فكرة مسيطرة إلا في فجر الموجة الثانية، التي اعتمدت في تقدمها على النظرية الذرية من الناحية الطبيعية والفلسفية.

وكل حضارة جديدة تلتقط أفكاراً من الماضي، وتعيد صياغتها بطريقة تساعدها على فهم نفسها، في علاقتها بالعالم. وفي المجتمع الصناعي الناشيء، الذي كان قد بدأ يتحرك نحو الانتاج على نطاق واسع لمصنعات

تنتجها الألة بشكل نمطي وتتكون من أجزاء يجري تجميعها، في مثل ذلك المجتمع لم يكن من الممكن التخلي عن فكرة الكون الذي يشكل من تجميع اجزاء. تلك الأجزاء التي تتشكل بدورها من مكونات أصغر متميزة.

الانسان.. والذرة

وكانت هناك أيضاً أسباب سياسية واجتماعية لقبول النموذج الذري للواقع، فمع اصطدام الموجة الثانية بمؤسسات الموجة الأولى، احتاجت الموجة الثانية إلى تمزيق البشر إلى أفراد بعيداً عن نموذج الأسرة الكبيرة، وعن نفوذ الدين... احتاجت إلى اعتبار الانسان مناظراً للطبيعة، حراً طليقاً، قائماً بذاته خالياً من أية ارتباطات حتمية.. باختصار، اعتبار الانسان الجسم الأصغر الذي لا ينقسم ولا يتجزأ، والذي يتكون منه المجتمع. ولعل انعكاس هذا يبدو واضحاً في اعتبار الصوت الانتخابي الجسيم الأصغر في الكيان السياسي.. بنفس الطريقة شاعت الفكرة الذرية، وصبغت رؤية الانسان لكافة مجالات الحياة...

السببية.. وقوانين نيوتن

وكما تسعى أية حضارة إلى تبني رؤية خاصة بها عن الخامة التي تتكون منها الأشياء، تسعى أيضاً للوصول إلى تفسير حول سبب حدوث الأشياء.

وقد وجدت حضارة الموجة الثانية ضالتها فيما يتصل بغوامض السببية، في اكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية. وقد أعطى نيوتن مثله الشهير الذي

يوضح العلاقة بين المؤثر والمتأثر، معتمداً في تشبيهه على نموذج كرات البلياردو التي تصطدم الواحدة منها بالأخرى، وتتحرك كل واحدة منها استجابة للأخرى. هذا المثل الذي يوحي بقوى خارجية تحرك الاشياء يمكن قياسها والتعرف عليها. كان له تأثير غاية في القوة. لأنه ينسجم تماماً مع التصور الصناعي الجديد، فيما يتصل بالزمان الخطى والمكان الخطي.

سجن جديد للعقل البشري

فجأة؛ تحول الكون الذي كان يبدو للبشر معقداً، مترامياً لا يمكن التنبؤ بأحواله، غامضاً لا يمكن سبر أغواره.. هذا الكون تيحول إلى شيء مرتب منظم منضبط. وأصبحت الجسيمات الدقيقة، أو الذرات، هي المناظر لكرات البلياردو. وصار تفسير كل ما حدث في الكون كامناً في العلاقات المتبادلة بين هذه الذرات. ولم يقتصر الأمر على المادة بل انسحب التفسير على البشر، وعلى أنماط سلوكهم الشخصي والاجتماعي والسياسي.

وهكذا بدا الأمر كما لو ان نيوتن قد اكتشف القوانين التي تنظم الكون، في الوقت الذي حدد فيه دارون القوانين التي تنظم التطور البيولوجي والاجتماعي، واكتشف فيه فرويد القوانين التي تنظم النفس البشرية وتحكمها.

لقد أصبح تحت يد حضارة الموجة الثانية نظرية للسببية، تبدو معجزة في قوتها وشمولها. هذه النظرية الجديدة للسببية، مع الصورة الجديدة للزمان والمكان، حررت معظم الجنس البشري من مظالم الرؤية

المختلطة التي كان يعاني منها. وفتحت الباب أمام الفتوح والانجازات التكنولوجية وحررت العقل من السجن الذي عاش فيه لآلاف السنين.

لكن الرؤية الصناعية خلقت هي الأخرى سجناً جديداً للعقل البشري، وهو العقلية الصناعية، التي تحطم من قدر كل ما لا يتفق معها، وتتجاهله، وتعاقب كل من يشطح خياله خارج أسوارها، والتي تحول البشر إلى وحدات بروتوبلازمية في تبسيط مخل، والتي تبحث دائماً عن الحلول الهندسية الميكانيكية لمشاكلها.

إن الايديولوجية العليا للحضارة الصناعية ليست محايدة، كما تحب أن تبدو. فهي مصدر التبرير الذاتي، الذي تستمد منه كل ايديولوجيات الأجنحة اليسارية والأجنحة اليمينية لعصر الصناعة. وبمثل ما تفعل كل الثقافات، ابتكرت حضارة الموجة الثانية عدسات ذات تشويهات خاصة يرى من خلالها الناس أنفسهم والكون من حولهم، وحققت بذلك كونها أكثر النظم الثقافية قوة في تاريخ البشرية.

والرؤية الصناعية، باعتبارها الوجه الثقافي لعصر الصناعة، جاءت مناسبة للمجتمع الذي عملت على تأسيسه، فساعدت على خلق مجتمع المنظمات الضخمة، والمدن الضخمة، والبيروقراطيات المركزية، ونظام السوق الذي يدخل في كل شيء.. وذلك في المجتمعات الرأسمالية كما في المجتمعات الاشتراكية.

لا يوجد سبب واحد

ويبقى بعد ذلك أمر غامض وحيد: ما السبب الذي قاد إلى قيام الثورة الصناعية؟ ما الذي جعل الموجة الثانية تمضي في اندفاعها لتشمل العالم بأكمله؟ . .

أي بحث عن «سبب» قاد إلى قيام الثورة الصناعية محكوم عليه بالفشل. ذلك لأنه لا يوجد سبب واحد يمكن أن يعزى إليه قيامها.

التكنولوجيا وحدها ليست القوة الدافعة للتاريخ. وليست الأفكار والقيم هي المحرك الوحيد، ولا الصراع الطبقي. كما أن التاريخ ليس مجرد تسجيل لتغير وتحول العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها، أو الأوضاع السكانية، أو الاختراعات في مجال الاتصال. والاقتصاد، لوحده، لا يمكن أن يفسر هذه الظاهرة أو غير ذلك من الأحداث التاريخية. ليس هناك متغير مستقل متميز وحيد يمكن أن تتوقف عليه المتغيرات الأخرى، لكن يوجد متغيرات تتبادل التأثير، لا حد لتعقيداتها وتركيبها.

كل ما نملكه في هذا الصدد هو أن نركز على التغييرات التي تبدو أكثر اتفاقاً مع أغراض بحثنا، مع حرصنا على تبين الخطأ الضمني الناشيء عن اختيارنا. بهذا المنطق، يمكن القول بأن المتغير الذي كانت له أكبر الآثار في تشكيل حضارة الموجة الثانية، هو تلك الهوة المتسعة التي نشأت بين الانتاج والاستهلاك، وما تبع ذلك من نمو خرافي لشبكة المبادلة التي نسميها السوق، سواء كان ذلك السوق في شكله الرأسمالي أم الاشتراكي.

هذا الأخدود بين الانتاج والاستهلاك، هو الذي تمخض عن النظام النقدي الحديث كله، بما في ذلك مؤسسات البنوك المركزية، وأسواق الأوراق المالية والتجارة العالمية والمخططون البيروقراطيون، وروح التقييم الكمي والحسابي، وأخلاقيات التعاقد، والانحرافات المادية، والمقاييس الضيقة للنجاح، والجهاز المحاسبي القوي.

ومن هذا الأخدود بين الانتاج والاستهلاك، نشأ الضغط المؤدي إلى تعميم التوحيد القياسي والتخصص والتزامن والمركزية. . ومنه تولدت الفروق بين الجنسين في الدور والمزاج.

لعبة الصناعة قد انتهت!

وأيا كانت مزايا ونواقص حضارة الموجة الثانية، فمن الحيوي أن تفهم أن لعبة الصناعة قد انتهت، وان طاقاتها قد تبددت، وأن قواها تتلاشى في كل مكان، في الوقت الذي جمعت فيه الموجة التالية قواها.

وهناك تغييران أساسيان يجعلان الاستمرار «العادي» للحضارة الصناعية غير ممكن بعد الان، أولهما أننا وصلنا إلى نقطة تحول في «حربنا مع الطبيعة»، والغلاف الجوي للكرة الارضية لن يتحمل المزيد من الافساد الذي تجلبه الصناعة. وثانيهما، اننا لن نستطيع بعد الان الاعتماد على مصادر الطاقة غير المتجددة، والتي ما زالت العماد الأساسي للتطور الصناعي.

ولا يعني هذا نهاية المجتمع التكنولوجي، أو نهاية الطاقة، لكنه يعني أن كل التطورات التكنولوجية المستقبلة ستتشكل وفقاً لمدى حفاظها على

البيئة. ويعني أيضاً أنه لكي تصل إلى مصادر بديلة، ستعاني أيضاً الدول الصناعية من أعراض الانكماش المتتابعة، وربما العنيفة. في الوقت الذي يعجل فيه هذا النضال من أجل البحث عن أشكال جديدة بديلة للطاقة، في حدوث التحولات الاجتماعية والسياسية.

وفي نفس الوقت ستعاني حضارة الموجة الثانية من نقص المواد الخام الرخيصة. فمع انحسار نفوذ الاستعمار والامبريالية الجديدة، سيكون على الدول المتطورة تكنولوجياً إما أن تتجه إلى داخلها بحثاً عن بدائل وموارد جديدة، تشتري من بعضها البعض، وتقلل بهذا من روابطها الاقتصادية مع الدول غير الصناعية؛ أو أن تستمر في الشراء من الدول غير الصناعية، ولكن وفق شروط تجارية جديدة تماماً، وفي كلتا الحالتين سترتفع التكاليف بشكل ملموس.

ومن الداخل

هذا الضغط الخارجي على المجتمع الصناعي، تصاحبه ضغوط محطمة من داخل النظام نفسه.. نرى هذا بشكل مأساوي في الصراع الدائر لتحديد دور كل من الجنسين في الحياة، وفي الحركات النسائية، في الحركات الداعية لتقنين الشذوذ الجنسي. في شيوع مودات الأزياء الواحدة للجنسين. وفي مجال العمل، نرى الممرضين والمرضى على السواء يعيدون تقييم علاقاتهم بالاطباء، ورجال الشرطة والمدرسين يحطمون القواعد المرعية والتقاليد الراسخة، فيقومون باضرابات غير قانونية.

ومؤسسات الموجة الثانية تعاني الأزمات واحدة بعد الأخرى. أزمات في نظام التأمين الاجتماعي وفي نظم البريد والدراسة. أزمات في نظم الخدمة الصحية، وفي أساليب الحياة الحضرية. أزمات في النظم النقدية الدولية.. بل أن كيان الدول والمؤسسات الدولية يعاني ذاته من أزمة حادة.

من حق الإنسان أن يتمسك بالنظر إلى كل أزمة من هذه الأزمات على حدة، وأن يرفض محاولة تبين العلاقات الوثيقة بينها، لكن ذلك سيكون على حسابه هو، عندما تتضاعف المحنة التي يعيشها.. إن الذي يحدث أكبر من كل هذه الأزمات.. وإذا فكرنا فيما يحدث من خلال تصور الموجات الحضارية التي تتعاقب على البشر، ومن خلال التصادم الذي يحدث بينها، أمكننا أن نصل إلى الحقيقة الكبرى لجيلنا... وهي أن الحضارة الصناعية تحتضر.. وأننا نشهد بشائر الموجة الثالثة من موجات التغيير.

إذا ما تفحصنا الوضع من حولنا، عبر الظواهر المتشابكة لضروب الفشل والتصادم، أمكننا أن نتبين خيوط فجر جديد من النسر، ومن الاحتمالات المستقبلية المتفائلة.

الفصل الخامس

عصر التفكير. .
فيما لا يمكن التفكير فيه

والآن، بعد أن استعرضنا ذلك التحليل الخلاق، الـذي قام به الفين توفلر للحضارة الصناعية، أو حضارة الموجة الثانية، تبدأ المهمة الصعبة لرسم معالم حضارة المستقبل، أو بمعنى أدق التي بدأت خطاها الاولى عام ١٩٥٥، وظهرت ارهاصاتها في كل مكان من حولنا، وتخضع لها حياة البشر في المستقبل القريب.

المهمة صعبة لاننا، رغم كل جهد بالتزام الموضوعية، ما زلنا متأثرين بمنطق وفكر الحضارة الصناعية المتحضرة، مما يعرضنا إلى الانزلاق في مسالك التفكير القديم. . وهي صعبة أيضاً، لأن واقعنا مليء بالمتناقضات المتشابكة، نتيجة للاصطدام الحتمي بين الموجة الثالثة، والموجة الثانية، مما يجعل عملية جمع هذا الشتات المتناقض، ورسم صورة المستقبل من خلال هذا الشتات، عملية غاية في المشقة. وفي هذا يقول توفلر «من السهل القول بأن المستقبل ينطلق من الحاضر. لكن أي حاضر؟ . . وحاضرنا يتفجر بالمتناقضات!!»، إلى أن يقول «. . وبرغم كل ما يخرج من أحشاء الكمبيوتر. . وبرغم الاحصاءات والخرائط وبرغم المعادلات الرياضية التي يعتمد عليها علماء المستقبل في أبحاثهم. . برغم هذا كله تبقى محاولاتنا في استراق النظر إلى المستقبل

ـ وربما حتى في محاولاتنا لفهم اليوم ـ تبقى، كما يجب أن تبقى، عملاً فنياً أكثر منه علمياً . . » .

ويرجع توفلر صعوبة التنبؤ بالمستقبل إلى ما عودتنا عليه حضارة الموجة الثانية . فهي قد اعطت أهمية كبرى لتنمية قدراتنا على تفتيت المشاكل والنظر في مكوناتها، لكنها لم تساعدنا كثيراً في تنمية قدرتنا على جمع هذه المكونات ثانية في كل منسجم . وهذا هو السبب في أن صورة المستقبل تراها أعيننا متشرذمة مختلطة العناصر، وربما خاطئة، علينا أن نواجه هذا النقص بكل اصرار، لأننا نقف اليوم على عتبة عصر التركيب والتوليف، عصر تشكيل المكونات الجزئية في كل متكامل سليم .

طاقة جديدة لكل مكان

يبدأ توفلر رسم صورة تفصيلية للمستقبل بالحديث عن الطاقة . .

يتفق المراقبون جميعاً على أن الاعتماد على وقود الحفريات، من بترول وغاز، لا يمكن أن يمضي بنفس معدله إلى الأبد، أياً كان حجم آبار البترول الجديدة التي نكتشفها . لقد انتهى عصر البترول . وكذلك انتهى عصر الفحم لتناقص امداداته، ولأضراره على البيئة .

أما التكنولوجيا النووية فتثير مشاكل أكثر حدة، حتى وهي في مرحلة تطورها الحالية . فهي تعتمد على اليورانيوم الذي يتعرض رصيده هو الآخر للتناقص، بالاضافة إلى المخاطر التي تتضمنها عملية استخلاص الطاقة عن هذا الطريق، بما في ذلك مشكلة النفايات النووية التي لم نجد لها

حلاً حتى الآن. زد على ذلك ارتفاع تكلفة الطاقة في هذه الحالة نسبياً.

يقول توفلر «لقد وصلنا إلى نهاية خط من خطوط التطور، وعلينا أن نبدأ خطاً جديداً. فأسس الطاقة الخاصة بالموجة الثانية لم تعد مناسبة لنا.. ونحن الآن لا نحتاج فقط إلى تدبير قدر معين من الطاقة، لكننا نحتاج إلى أن نصل إلى الطاقة بطرق مختلفة، في الاماكن المختلفة، وفي أوقات مختلفة من اليوم، ومن السنة.. نحتاج إليها لأغراض جديدة علينا، لم نكن نحلم بها..».

الذي لا شك فيه هو أن انتقالنا من الاعتماد على نمط من الطاقة إلى نمط آخر لن يكون عملية سهلة ناعمة.. بل سيكون أشبه بالمخاض الصعب، الذي تتخلله الهزات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ومع ذلك فلدينا الجانب الاكثر اشراقاً في هذا المجال.. فعلى مدى التاريخ، لم يحدث أن انكب ذلك العدد من العلماء، بكل هذا الحماس والعزم، للبحث عن أشكال جديدة للطاقة، لم يحدث أن كانت في انتظارنا مثل هذه الاحتمالات الجديدة المثيرة في مجال الطاقة.

هذه الاحتمالات تتراوح بين الطاقة الشمسية، حيث تتولى الخلايا الكهروضوئية تحويل أشعة الشمس إلى كهرباء. الأمر الذي تدور تجاربه وابحاث تطبيقه في أمريكا، وبين المحاولات السوفييتية الراهنة التي تتضمن اطلاق بالونات تحمل طواحين هواء إلى طبقات الجو العليا، ترسل تياراً من الكهرباء عن طريق الكابلات. وهناك المحاولات التي تجري في مدينة نيويورك للحصول على الكهرباء من حرق النفايات، وفي ايطاليا

وايسلندا ونيوزيلندا لتحويل الحرارة الجوفية للأرض إلى كهرباء، وما تقوم به اليابان من توليد الكهرباء من حركة الامواج التي لا تتوقف في البحار والمحيطات.

والواقع أنه من الصعب حصر المحاولات العديدة التي تجري في أنحاء مختلفة من العالم للوصول إلى مصادر جديدة ومتنوعة للطاقة، ونحن ما زلنا في مرحلة ما قبل الاقلاع بالنسبة لهذه المحاولات، وبمجرد أن نتمكن من تجميع هذه التكنولوجيا الجديدة ستظهر لنا الاحتمالات الكبيرة والخصبة، وسنتمكن من إرساء أساس الطاقة الجديدة التي ستعتمد عليها الموجة الثالثة.

عوامل انهزام الحضارة الصناعية

فما هو الذي تتميز به طاقة الموجة الثالثة عن طاقة الموجة الثانية؟..

أولاً: ستتميز بأنها تعتمد على امدادات متجددة، في مقابل المصادر غير المتجددة لطاقة الموجة الثانية.

ثانياً: لن تركز تركيزاً بالغاً على وقود معين، بل ستعتمد على تنوع عريض من المصادر المتفرقة.

ثالثاً: سيختار كل نشاط نوع الطاقة الأنسب له، والاقرب إلى تلبية حاجته، والأسهل منالاً بالنسبة له، وهذا يعني الاقتصاد الملموس في استهلاك الطاقة.

فرض الأسس الجديدة للطاقة لن يتم إلا بالدخول في معركة حامية مع أصحاب المصالح في الموجة الثانية. سنجد خلال هذه المعركة في أحد الجانبين أولئك الذين يستثمرون اموالهم في المصادر التقليدية للموجة الثانية، وفي الجانب الآخر نجد انصار الموجة الثالثة الذين يتكونون من المستهلكين، وحماة البيئة، والعلماء والذين بدأوا يستثمرون أموالهم في صناعات الموجة الثالثة، بالاضافة إلى الجماهير الواسعة التي يتزايد وعيها بضرورة المضي في طريق التقدم.

في هذه المعركة يجب ألا نخلط بين دعاة الموجة الثالثة، وبقايا دعاة الموجة الأولى، من انصار العودة إلى الطبيعة، وإلى ما قبل المجتمع الصناعي، وإلى التنازل عما وصلنا إليه من انجازات تكنولوجية، إلى آخر هذه الدعاوى الرومانتيكية. لا يجب أن نخلط بينهما لمجرد انهما يعارضان معاً جبهة الموجة الثانية.

ومع ذلك فعوامل انهزام انصار حضارة الموجة الثانية تبدو واضحة. وهذه العوامل كامنة في طبيعة هذه الحضارة، وتأتي من داخلها. . وهذه العوامل يتزايد أثرها يوماً بعد يوم بفعل الأمر الواقع. يؤكد هذا ما سيتم من تغيير عميق في حياتنا بفقد تكنولوجيا الموجة الثانية جدواها.

صناعات جديدة تماماً

الفحم والسكك الحديدية والنسيج والصلب والسيارات والمطاط وانتاج الادوات الميكانيكية، تلك كانت الصناعات التقليدية للموجة

الثانية. وقامت كلها أساساً على مبادىء كهروميكانيكية بسيطة من الناحية التكنولوجية. . كلها تستهلك قدراً كبيراً من الطاقة، وتلفظ قدراً هائلاً من النفايات وملوثات البيئة، كلها تعتمد على خطوط الانتاج المتواصلة التشغيل، وعلى انخفاض المهارات المطلوبة، والعمل المتكرر، والبضائع النمطية القياسية، والادوات الشديدة المركزية.

ابتداء من منتصف الخمسينات، ووفقاً للاحصائيات، أخذت هذه الصناعات تتناقص داخل الدول الصناعية، باعتبارها صناعات متخلفة. وبدأت عملية نقل هذه الصناعات إلى الدول النامية، حيث الأيدي العاملة الرخيصة، وحيث التكنولوجيا الأقل تقدماً. وصاحب هذا ظهور صناعات جديدة في الدول الصناعية المتقدمة، تحل محل تلك الصناعات المتخلفة.

هذه الصناعات الجديدة تختلف بشكل ملحوظ عن سابقتها في عدة أوجه: فهي ليست صناعات كهروميكانيكية، ولا تقوم على العلوم التقليدية لعصر الموجة الثانية، بل تعتمد على التقدم المتصاعد لخليط من العلوم التي كانت محدودة الرواج، أو غير معروفة، منذ ثلاثين عاماً فقط. مثل علم الالكترونات الكمية، ونظرية المعلومات، وعلم الأحياء الجزيئي وعلوم المحيطات وعلوم البيئة والفضاء.

وبفضل هذه العلوم الجديدة، نشأت صناعات جديدة مثل صناعة الكمبيوتر، وطيران الفضاء، والبتروكيماثيات المتطورة، وأشباه المواصلات، وصناعة وسائل الاتصال المتطورة. . إلى آخر هذه

الصناعات التي نسمع اليوم عنها. والتي تحظى بنصيب الأسد في ميزانيات التصنيع بالدول الصناعية المتقدمة. ومع تزايد الاهتمام بهذه الصناعات الجديدة يغلب أن تصبح عماد النشاط الصناعي في عصر الموجة الثالثة، جالبة معها تغيرات كبرى في القوى الاقتصادية، والانماط الاجتماعية والسياسية. وليست هناك حاجة للتدليل على النمو الهائل المتزايد لصناعة الالكترونيات والكمبيوتر خلال السنوات الأخيرة. الأمر الذي دعا مجلة عالم الكمبيوتر إلى أن تقول «إذا ما كانت صناعة السيارات قد جرى عليها ما جرى على صناعة الكمبيوتر في الثلاثين سنة الماضية، لاصبح ثمن سيارة رولزرويس لا يتجاوز دولارين ونصفاً، ولكانت تقطع مليونين من الأميال عندما تستهلك جالوناً من الوقود».

إلا أن هذا الانفجار الالكتروني هو مجرد خطوة واحدة في اتجاه خلق المجال التكنولوجي الجديد.

صناعات في الفضاء

فنفس هذا التطور والتراكم المتسارع في المعلومات تراه في مجالي الفضاء الخارجي وأعماق المحيطات، حيث يظهر بوضوح حجم الانجازات المتجاوزة لتكنولوجيا الموجة الثانية.

لقد أصبحت صناعات الفضاء موضوعاً ساخناً بين العلماء والمهندسين، ومخططي التكنولوجيات المتقدمة. في نفس الوقت الذي يبحث فيه صناع الزجاج عن طرق لصناعة خامات جديدة تساعد في نقل

أشعة الليزر عبر الالياف البصرية، ويتم إنتاجها فى الفضاء، نرى محاولات لانتاج أشباه موصلات ذات بلورة وحيدة في الفضاء، تجعل أشباه الموصلات المصنوعة على الارض تبدو متخلفة بدائية، كما أن بعض العقاقير التي تستخدم في حالات الجلطة الدموية يمكن انتاجها في الفضاء بخمس نفقات انتاجها على الأرض.

والأهم من هذا وذاك، المنتجات الجديدة التي لا يمكن انتاجها فوق الأرض بأي ثمن، فهناك حوالي ٤٠٠ نوع من السبائك الهامة، لا يمكن أن تنتج إلا في الفضاء بعيداً عن تأثير جذب الأرض. وتقوم شركة جنرال الكتريك حالياً بتصميم فرن فضائي لهذا الغرض. في هذا المجال تقول مجلة النشاط المالي الاسبوعية «مثل هذه المشروعات ليست من قبيل الخيال العلمي، فهناك عدد متزايد من الشركات التي تسعى مستميتة لتحقيقها..»

ثروات المحيط

نفس هذه الاحتمالات الغنية الكبيرة نجدها في مياه المحيطات، حيث تكمن أصول صناعات عديدة تشكل جانباً هاماً من المجال التكنولوجي الجديد لحضارة الموجة الثالثة. ففي المحيط يرقد العديد من الحلول لمشاكل الطعام في عالم يتضاعف تعداده من البشر. فبدلاً من الأساليب الحالية التي تستهلك الثروة الحيوانية في البحار والمحيطات بطريقة تهدد بانقراض العديد من فصائل الكائنات المائية، تسعى الموجة الثالثة

لانشاء المزارع السمكية في اعماق البحار، بالاضافة إلى استغلال النباتات والحشائش المائية في التغلب على أزمة الطعام، دون الحاجة إلى المزيد من الاضرار التي تلحق بالغلاف الجوي للأرض.

وفي المحيطات تكمن الثروات المعدنية، التي يمكن أن تسد حاجتنا من النحاس والزنك والرصاص والفضة والذهب والبلاتين، والأهم من كل هذا خام الفوسفات الذي يمكن أن نستخدمه كمخصب للزراعات الأرضية. كذلك يعمل علماء الصيدلة للحصول على عقاقير جديدة من أعماق المحيط، مثل العناصر المضادة للفطريات، والعقاقير التي توقف الألم وتمنع النزيف.

شفرة الحياة

والمجموعة الرابعة من صناعات المستقبل بعد الالكترونيات والفضاء والمحيطات هي الصناعات البيولوجية، حيث تتضاعف المعارف حول حاملات الخصائص الوراثية كل عامين، ومن ثم تتطور بسرعة مذهلة معلوماتنا عن آليات الجينات. في هذا يقول العالم والمعلق العلمي المعروف لورد ريتشي كالدر: «.. وبالضبط كما أمكننا التعامل مع اللدائن والمعادن، أصبحنا الآن قادرين على تصنيع المادة الحية..!!».

وفي كتابي «هذا الغد العجيب» تحدثت بالتفصيل عن أبعاد احتمالات المستقبل في هذا المجال، وعن الامكانيات الواسعة أمام العلماء، بعد أن أوشكوا أن يفضوا أسرار الخلية الحية وآليات الوراثة.. امكانيات لا

تقتصر على مواجهة العجز والمرض عند الكائنات الحية، بل تتجاوز ذلك إلى حلول محتملة في مجال حل مشاكل الطاقة والطعام والزراعة، مما دفع أحد علماء أمريكا إلى أن يقول «ستحل البيولوجيا محل الكيمياء في حياتنا..».

خلاصة القول، إننا لم نعد مسجونين داخل جدران التكنولوجيا الكهروميكانيكية للموجة الثانية، والتي تبلغ من العمر ٣٠٠ سنة، وإننا بدأنا نرى طلائع المجال التكنولوجي لحضارة الموجة الثالثة. غير أن هذا المجال التكنولوجي الجديد لا يقتصر أثره على التكنولوجيا فقط. بل سيحدث ثورة في المجال الاعلامي الحالي.

الجاسوس.. بطل العصر!

يلفت توفلر النظر إلى ظاهرة طريفة عندما يتساءل: لماذا احتل الجاسوس مكان الصدارة في الأعمال الدرامية الحديثة. على حساب الابطال القراصنة. وابطال الغرب الأمريكي. ونجوم التهريب، وعتاة رجال الشرطة؟.. وهو يجيب بنفسه عن هذا التساؤل قائلاً: لأن شخصية الجاسوس شخصية نابعة من مواصفات العصر، تعتمد في نشاطها على التكنولوجيا الالكترونية المتقدمة. والأهم من هذا هو أن السلعة التي يتداولها الجواسيس، تعتبر من أهم معالم الثورة الحالية الكاسحة في مجال الاعلام، يعني بذلك المعلومات.

وهو يعقد مقارنة بين المجال الاعلامي لحضارة الموجة الأولى

الزراعية، والحضارة الصناعية للموجة الثانية. طفل الموجة الأولى كانت تنحصر مصادر معلوماته في المعلم، ورجل الدين، والعمدة، وافراد أسرته. والقلة القليلة من أبناء الموجة الأولى هي التي كان يتاح لها أن ترى مدينة غريبة غير المدينة التي نشأوا وعاشوا بها. ومن هنا كانت النماذج المطروحة أمام الناشيء، والتي يحتمل أن يقتدي بها أو يقلدها، محدودة للغاية.

أما حضارة الموجة الثانية فقد ضاعفت أكثر من مرة قنوات اتصالها. ولم يعد الطفل يستمد معلوماته من أقاربه ومن الطبيعة، بل وجد من حوله الصحافة والراديو، وبعد ذلك السينما والتليفزيون، تمطره في كل لحظة بسيل من المعلومات. وقد حرصت حضارة الموجة الثانية على أن تستغل هذه القنوات المؤثرة في زرع توجيهاتها الملحة، راسمة صورتها المعتمدة للواقع، التي يجب أن تنطبع على كل العقول.

فعرف أبناء حضارة الموجة الثانية صورة لينين بفكه البارز ومن خلفه يرفرف العلم الأحمر الكبير، وصورة تشرشل وهو يرفع يده بعلامة النصر، وصور هتلر وهو يخطب متشنجاً في جماهير الشعب الالماني المهووسة به، وصورة شارلي شابلن بقبعته وعصاه، وصورة مارلين مونرو وقد أطار الهواء طرف ثوبها كاشفاً عن ساقيها.. لقد تم استخدام وسائل الاعلام الجماهيري كوسيلة لاجراء توحيد قياسي لعقول أبناء الموجة الثانية. وكان ذلك بالطبع لحساب خدمة أهداف المجتمع الصناعي.

الا أن التطور التكنولوجي في مجال الالكترونيات جعل الانسان

المعاصر غارقاً في بحر متلاطم، غير موجه، من المعلومات التي لا تنقطع. ومن هنا أصبحت رؤيته متجددة، تتغير عناصرها بتسارع مطرد. ولم تكتف الموجة الثالثة بخلق هذا التسارع في تغيير وتبديل الرؤية، بل بدلت البناء المستقر للعملية الاعلامية، والذي يستمد منه الانسان حركته اليومية.

تفتيت الجماهير

لقد احدثت الموجة الثالثة انقلاباً في طبيعة وأسس المجال الاعلامي، وسارت به في اتجاه معاكس لاتجاهه السابق. في مكان تعميق التأثير الاعلامي على الجماهير، وتوسيع قاعدة الجماهير التي تتأثر كلها بنفس الرؤية النمطية، عمدت الموجة الثالثة إلى تفتيت هذه الجماهير وشرذمتها، متيحة بذلك فرصة تعدد الرؤية وتنوعها.

ويعتمد توفلر على قائمة احصاء طويلة تفيد أن الصحف والمجالات واسعة الانتشار، والتي تعتبر نماذجاً لجماهيرية اعلام الموجة الثانية، قد بدأت تفقد القراء، بل أن بعضها اضطر إلى التوقف. وليس السبب الأساسي في ذلك هو انتشاز التليفزيون كما يقول البعض، فهو يعود مرة ثانية إلى الاحصائيات والارقام، ليؤكد أن ما خسرته الصحف والمجلات الكبرى، ذات الاهتمام العام، والتأثير الجماهيري العريض، كسبته الصحف والمجلات النوعية المتخصصة ذات التوزيع المحدود، والتي تعبر عن المجموعات الفئوية، أو أصحاب الحرف الخاصة، أو الهوايات المحددة، أو الجماعات الاقليمية.

وتنسحب نفس هذه الظاهرة على الاذاعة. بدأت المحطات الرئيسية تفقد جمهورها، لتستولي عليه الاذاعات المتخصصة والفئوية، مثل اذاعة تعليم الحرفيين، أو اذاعة أغاني الروك أو الموسيقى الريفية.. وغير ذلك من الاذاعات الصغيرة العديدة التي تخاطب كل منها قطاعات محددة من جماهير الشباب. كما ان ظهور الكاسيت الصوتي، وجهاز التسجيل الخفيف والرخيص، قد حرم محطات الاذاعة الجماهيرية جانباً كبيراً من التأثير النمطي الذي كانت تمارسه على الجماهير الواسعة.

أزمة التليفزيون

وننتقل بعد ذلك إلى التليفزيون، أكثر وسائل الاعلام الجماهيري قوة وتأثيراً. لقد ظل يؤثر على جيل كامل، فارضاً الرؤية الخاصة المحددة التي سبق رسمها لتتفق مع مصالح المجتمع الصناعي.

لكن ما ان حل عام ١٩٧٧، حتى بدأ ظهور معالم الأزمة التليفزيونية وقد كتبت مجلة تايم تقول «انكب جميع العاملين، والمذيعين والمديرين، يتطلعون بعصبية إلى الارقام.. انهم لا يصدقون ما يرونه أمامهم.. فلأول مرة في التاريخ تنخفض مشاهدة التليفزيون بدلاً من أن تزيد!!».

وهذا يعني أن الارسال التليفزيوني، كوسيلة في يد الصفوة العليا لفرض رؤيتها الوحيدة على الجمهور، قد بدأ يفقد صلاحيته القديمة، ويساعد على هذا، الانتشار السريع لتلفزيون الكابل في المناطق التي

بدأ التنفيذ فيهـا، ويتوقـع له العلمـاء شيوعـاً ساحقـاً بعد. التحـكم في تكنولـوجيا نقـل الصـوت والصـورة بواسطـة أشعة الليزر، التي تنتقل عن طريق الالياف الزجاجية الدقيقـة للغـاية، والتـي ستحل محل الأسلاك النحاسية الحالية. فكابـل الالياف الزجـاجية قادر على نقل عشرات البرامج في نفس الوقـت. والأهـم من ذلك أنـه يتيح للمشاهـد أن يتصـل بمحطـة التليفـزيون، وأن يصبـح الاتصـال في اتجـاهين. . وهـكذا يتحـول الجمهـور القـديم الموحـد المتأثـر برؤية مفروضة واحدة، إلى جماهير صغيرة متعددة نشيطة ايجابية تتبنى العديد من الرؤى.

ومما يساعد على إضعاف أثر التليفـزيون كأداة في يد الصفـوة العليا ظهور العاب الفيديو وأنواع الخدمات التليفزيونية الاعلامية، مثل خدمة «تليتيكـس» في بريطانيا، وظهـور الفيديو الـكاسيت، وانتشـاره السـاحـق المتزايد بين النـاس.

ويرى توفلر في هذا التحول خيراً عظيماً على البشرية فكلما تأثرنا برؤية نمطية واحدة للواقع، مفروضة علينا من أعلى، قلت حاجتنا إلى التعرف على بعضنا البعض، واكتشافنا لغيرنا. . فنحن جميعاً نسـخ متطابقـة من أصل واحد، أو هكذا يشعر الناس ولو بطريقـة لاشعـوريـة. لذلك فإن شرذمة التأثر الجماهيري وتفتيته، وتعدد الرؤى للواقع، ستقود إلى شعور الفرد بالحاجة إلى التعرف على الآخـرين، وإلـى المـزيد من الاهتمام والاحتكاك حتى يمكن التنبؤ بسـلوك الآخرين.

هذا التحول في المجال الاعلامي الذي تحققه الموجة الثالثة، لا يقتصر أثره على بعث الحياة في البيئة التي نعيش فيها، بل سيضفي عليها الذكاء أيضاً. والاداة الثورية الكبرى في هذا المجال هي الكمبيوتر، ذلك الخليط بين الذاكرة الالكترونية، والبرامج التي تضع للجهاز الاسس التي يعالج بمقتضاها المعلومات.

وقد بدأ الزحف المتسارع للكمبيوتر على حياتنا، ما بين عام ١٩٥٥ و ١٩٦٥، في الفترة التي شهدت بداية زحف الموجة الثالثة على عدد من البلاد الصناعية المتقدمة، وكان تأثير ذلك الجهاز على درجة من الشيوع والعمق، مما جعله عنصراً من اساطيرنا الاجتماعية، يعتمد عليه كتاب السيناريوهات، وقصص الخيال العلمي كرمز للمستقبل.

إلا أن ما حققه الكمبيوتر من قفزات خرافية خلال السبعينات تجاوز كل خيال أو حلم. تضاعفت قدراته وسرعة قيامه بالعمليات عدة مرات متتالية، وانخفض سعره انخفاضاً كبيراً. وظهرت أشكال غاية في التنوع من الكومبيوتر الشخصي أو المنزلي، صغيرة الحجم، قليلة السعر، واسعة الاستخدام.

ويعطي توفلر اللكومبيوتر الشخصي اهتماماً خاصاً، ويعتبره جهازاً حاذقاً. يمكن استخدامه في كل شيء ابتداء من حساب الضرائب على افراد الاسرة إلى تحديد استهلاك الطاقة في البيت، إلى استخدامه كلعبة من العاب الفيديو، إلى حفظ ملفات الأسرة وضبط وثاقها، إلى تذكير

افراد الأسرة بمواعيدهم الهامة، مع أمكانية استخذامه كآلة كاتبة. ويقول أن هذا كله يعتبر لمحة صغيرة مما يمكن للكمبيوتر الشخصي ان يقدمه.

فقد قامت احدى الشركات الأمريكية بتنظيم خدمة خاصة لاصحاب الكمبيوتر الشخصي اطلقت عليها اسم «النبع» وفيها تقوم الشركة بتوصيل الكمبيوتر الشخصي بعدة مصادر هامة، تتيح لصاحبه أن يستدعي إلى شاشته نشرات الاخبار، وتطورات سوق الأوراق المالية والبرامج التعليمية وتعليم اللغات، وكافة المعلومات التي يحتاج إليها عند قيامه بأية سياحة داخلية أو خارجية. وفي نفس الوقت تتيح هذه الخدمة لصاحب الكمبيوتر أن يتصل بأي شخص آخر مشترك في هذه الخدمة، باستخدام شاشة الكمبيوتر، فيكون بإمكانهم تبادل المعلومات، أو لعب مباراة شطرنج أو طاولة بالاضافة إلى العديد من الخدمات الاخرى التي تستجد يوماً بعد يوم.

مضاعفة الذكاء البشري

هذا التغيير العميق في المجال الاعلامي، مقدر له أن يحدث تحولاً في عقولنا كبشر، وفي طريقة نظرنا إلى المشاكل، أو تحليل المعلومات، أو حتى في طريقة تقديرنا لعواقب ما نفعل. إن هذا التغيير كفيل بإحداث تغيير مناظر في مفهوم المعرفة الذي تقوم عليه حياتنا.

سيتكفل الكمبيوتر بزيادة قوة عقولنا، بمثل ما تكفلت تكنولوجيا الموجة الثانية بزيادة قوة عضلاتنا. . ومن الذي يعلم ما ستقودنا إليه عقولنا بعد أن تتضاعف قدرتها؟ . .

بل إن الكمبيوتر قادر على تعميق رؤيتنا الحضارية لقانون السببية، مما يضاعف فهمنا للعلاقات المتبادلة بين الأشياء، ومساعدتنا على اجراء تجميع وتوليف لهذه الأشياء في شكل كليات لها معناها. . وهذه البيئة الذكية التي يحققها الكمبيوتر، بينما توفر لنا طرق تحليل المشاكل، واجراء التكامل بين المعلومات، يمكن أن تحدث تغييراً في كيمياء عقولنا، فقد اثبتت التجارب المعملية في علم الأحياء أن الحيوانات التي تتوفر لها بيئة أكثر غنى بالمعلومات، تتميز عن نظائرها بخصائص بيولوجية في المخ، تضعها في مصاف الأذكى والاكثر تطوراً. وهكذا، يمكن للبيئة الغنية بالمعلومات، والتي يوفرها الكمبيوتر، أن تجعلنا بنفس الطريقة أكثر ذكاء.

وكل هذا يشير إلى تغيرات أكثر دلالة يمكن أن يحدثها المجال الاعلامي الجديد للموجة الثالثة، «فشرذمة وتفتيت جماهيرية وسائل الاعلام، والصعود الصاروخي للكمبيوتر، يمكنهما معاً أن يحدثا تغييراً في ذاكرتنا الاجتماعية نفسها».

الذاكرة الاجتماعية

ولكي نفهم معنى تعبير الذاكرة الاجتماعية نقول إن كل الذكريات يمكن تقسيمها إلى تلك التي تعتبر شخصية أو خاصة جداً، وتلك التي نشارك فيها الآخرين، وهذه الأخيرة هي التي يطلق عليها الذاكرة الاجتماعية.

الذكريات الشخصية تموت بموت الشخص. أما الذكريات

الاجتماعية فهي التي يكتب لها دوام الوجود. وقدرة الانسان على تسجيل وتصنيف الذكريات المشتركة هي سر نجاح الانسان في تطوره الاكبر بالنسبة لباقي الكائنات الحية. ولذلك فأي تغيير ملموس يطرأ على طريقتنا في استنباط وتخزين واستخدام الذاكرة الاجتماعية يمس صميم ينابيع التطور البشري.

وعلى مدى التاريخ، وفيما قبل الحضارة الصناعية، لم تتح للانسان امكانية تسجيل الذاكرة الاجتماعية إلا في أضيق نطاق. ولكن ما أن حلت حضارة الموجة الثانية حتى حطمت حواجز الذاكرة الاجتماعية من الجمجمة، وهيأت الوسائل الجديدة لحفظها، فأتاحت لها بذلك امتداداً يتجاوز حدودها السابقة بكثير.

واليوم نحن على وشك القفز إلى قلب مرحلة جديدة من مراحل تكوين الذاكرة الاجتماعية فالتغيرات الجذرية التي تحدثها الموجة الثالثة، مثل التفتيت المتواصل لجماهيرية وسائل الاعلام، واختراع الوسائل الجديدة في الاتصال، وتصوير الأرض بالاقمار الصناعية، ومراقبة أحوال المرضى في المستشفيات عن طريق الأجهزة الالكترونية الحساسة، والاعتماد على الكمبيوتر في حفظ وتصنيف المعلومات بكل الطرق المطلوبة، كل هذه التغييرات تعني اننا أصبحنا نقوم بتسجيل نشاط حضارتنا بطريقة حساسة تحفظ أدق التفاصيل.

والانتقال إلى الذاكرة الاجتماعية للموجة الثالثة ليس مجرد تغير كمى فإذا كانت الموجة الثانية قد نجحت في حفظ الذاكرة الاجتماعية خارج جمجمة الانسان، فإن ذلك الحفظ كان يتسم بالسلبية والجمود. لقد كانت ذاكرة اجتماعية محنطة فوق صفحة جديدة أو كتاب أو على صورة أو فيلم سينمائي ولم يكن يتاح لرموز هذه الذاكرة أن تدب فيها الحياة إلا عندما يستقبلها مخ بشري.

أما الموجة الثالثة فقد أحدثت انقلاباً عندما جعلت الذاكرة الاجتماعية، بالاضافة إلى التزايد الكبير في قدرها حية متفاعلة طوال الوقت.

فالكمبيوتر لا يقف عند حد مساعدتنا على تنظيم شذرات المعرفة في شكل نماذج متكاملة للواقع. إنه يعمل أيضاً على توسيع الحدود البعيدة للممكن. لم نر من قبل مكتبة تفكر. أو ملفاً يتعقل ما به من معلومات أو احصائيات. . لكن الكمبيوتر يمكن أن يستجيب إذا ما طلبنا منه «أن يفكر فيما لا يمكن التفكير فيه». . فيما لم يفكر فيه البشر من قبل.

هذا في حد ذاته سيتيح لنا فيضاً من النظريات والافكار والايديولوجيات، والرؤى الغنية، والانجازات التكنولوجية، والابتكارات الاقتصادية والسياسية، التي لم يكن يحلم بها أحد من قبل. ومن شأن هذا أن يساعد على المسارعة في «التغيرات التاريخية للانسان على الأرض.

الفصل السادس

حضارة ما وراء السوق

عند مطلع القرن الحادي والعشرين، سنشهد بلا شك ثورة في المصنع وفي المكتب معاً. ثورة ستقود إلى قيام أشكال جديدة تماماً في الانتاج تكون أكثر فائدة للمجتمع. وهذا سيقود بدوره إلى مجموعة من النتائج المركبة المتشابكة التي تؤثر على مناحي حياتنا. فما سيحدث لن يقتصر تأثيره على مستوى العمل الوظيفي أو على كيان الصناعة، بل سيؤثر أيضاً على توزيع القوى السياسية والاقتصادية، وعلى حجم وحدات الانتاج، وعلى التقسيم الدولي للعمل، وعلى دور المرأة في الاقتصاد، وعلى طبيعة العمل ذاته.. والأهم من هذا وذاك، أنه سيؤثر على تلك القطيعة التي خلقتها حضارة الموجة الثانية بين المنتج والمستهلك.

وكما تتجه وسائل الاتصال الجماهيري نحو التشرذم، ويتحول الجمهور العريض إلى جماهير صغيرة متعددة ومتباينة، كذلك يتحول الانتاج الصناعي الذي يجري على نطاق واسع، إلى إنتاج محدود لعدة أنماط متباينة وفقاً لمزاج ورغبة وطلب الجماهير المتباينة. وهذا ما يقوم عليه الدليل حالياً في جميع الدول الصناعية الكبرى، في الشرق كما في الغرب.

يرى توفلر أن الخطوة القادمة ستكون بلا ريب هي خضوع الصناعة

بشكل كامل لرغبة المستهلك أو المشتري. وظهور الآلة التي تنتج سلعة واحدة بشكل ما، ثم تنتقل مباشرة إلى إنتاج نفس السلعة بشكل آخر، وهكذا. وهو يعطي مثلاً بصناعة الملابس. ففي المجتمع الزراعي كان الرجل الذي يريد رداء يتجه إلى الحائك أو إلى زوجته، وكانت حياكة ذلك الرداء تتم على أساس المقاييس الخاصة لجسم الرجل، والاختيار الخاص به لشكل الرداء. وبعد أن سادت الحضارة الصناعية، جرى انتاج أعداد هائلة نمطية متطابقة على أوسع نطاق. كان العامل يضع طبقات القماش فوق بعضها بالعشرات، ثم يضع فوقها الرسم أو الباترون، ثم يستخدم السكين الكهربائية في قصها جميعاً مرة واحدة. وهذه القطعة المقصوصة تدخل بعد ذلك مع غيرها في عملية حياكة نمطية أيضاً، لتقدم ملابس نمطية في شكلها وحجمها.

أما الآن، فقد توصلنا إلى الآلة التي تعمل بأشعة الليزر، والتي تستمد نشاطها من ذاكرة كمبيوتر، والتي يمكن أن تقص قميصاً واحداً في كل مرة، ثم تنتقل فوراً إلى قميص آخر بقياسات أخرى، وهكذا، وفقاً للبرنامج الموضوع لها. وهي تقوم بذلك بسرعة وكفاءة أكبر وبتكلفة أقل، إذا قيست على نظيرتها التي كانت تستخدم فيما مضى للانتاج على نطاق واسع.

ويقول أحد كبار رجال الصناعة الأمريكية بانتهاء عصر المقاسات النمطية. سيصبح بإمكان الشخص أن يذكر تليفونياً قياسات جسمه بدقة، أو حتى يوجه كاميرا الفيديو إلى جسمه، مغذياً الكمبيوتر بالمعلومات

المتصلة بقياساته، بحيث تنتقل هذه القياسات بشكل مباشر إلى الآلة التي تستوعب هذه المعلومات وتستخدمها في قص رداء واحد بقياسات ذلك الشخص. وهذه الآلة الحديثة لن تتوقف بعد قص ذلك الرداء بل ستواصل مباشرة قص رداء آخر بقياسات مختلفة، وهكذا مستعينة بذاكرة الكمبيوتر التي تخططلها عملها وفقاً لرغبات الزبائن.

وهذا يعني أننا أمام ثورة تمس أعماق نظام الانتاج الصناعي، ويتصل بهذا ثورة أخرى بدأت ظوارها في المكتب.

مكتب بلا ورق

في المجتمع الصناعي، وضعت أسس العمل المكتبي وفقاً لأسس العمل بالمصنع. والثورة التي تحدثها الموجة الثالثة في المكتب جاءت نتيجة لتصادم عدة قوى.

تضاعف المعلومات التي نتداولها تضاعفاً خرافياً، جعل أية هيئة من العاملين في المكاتب عاجزة عن التعامل معها. وحتى إذا توفر الجيش اللازم من السكرتيريين للقيام بهذا العمل، فإن تكلفته ستكون هائلة. وفي مقابل هذا، نجد انخفاضاً متواصلاً في ثمن الكمبيوتر، مع تضاعف الوظائف التي يقوم بها، مما أحدث هزة أرضية قوية في مجال العمل المكتبي.

مكتب المستقبل سيكون بلا أوراق، ويرجع الفضل في ذلك إلى ما تم من تطور علمي في مجال المكبيوتر يتيح لك أن تتكلم إليه، وترى النتائج

التي تطلبها على شاشته، أو تستمع إليهـا بأذنيك. أكوام الملفـات التـي يجري حفظ المعلومات داخلها، والتي تملأ حوائط بأكملها يمكن حفظها في أسطوانات صغيرة مرئية او شرائط تسجيل صغيرة.

سيصبح بإمكان المدير أن يملي خطابه على الكمبيوتر، فيسجله، ثم يستعين بجهاز إضافي في تصحيح الأخطاء اللغوية، أو تركيب الجمل، وينقل الخطاب فوراً إلى الشخص المعني، أو إلى الأشخاص المعنيين، كل ذلك بتكلفة أقـل، وبكفـاءة أعلـى وبسرعـة أكبـر. وهـذا المكتـب الألكتروني ستكون له آثارة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية العميقة على نظم العمل المكتبي.

البيت الألكتروني

هذه الثورة التي تحدث في المصنع والمكتب، ستقود إلى ثورة أخرى في الانتاج والمجتمع، ثورة سيمتد آثرها إلى البيت.

فالنظام الانتاجي الجديد، بالاضافة إلى أنه يشجع على قيام وحدات العمل الأصغر، ويقود إلى تفتيت مركزية وتركيز الانتاج في المدن، ويغير الطابع الفعلي للعمل، بالاضافة الى ذلك كله يحول ملايين الوظـائف من المصانع والمكاتب إلى البيوت بشكل حرفي. وعندما يتم هذا، سينعكس أثـره علـى كل المؤسسـات الاجتمـاعية التـي نعرفهـا اليوم. . الاسـرة، المدرسة، الشركة، المصنع.

يقول الباحث هارفي بويل «عندما نصل إلى تسعينيات هذا القـرن،

ستتطور إمكانيات الاتصال المتبادل بدرجة تشجع على انتشار ممارسة العمل في البيت». ويقول روبرت لاثام مسؤول التخطيط في مؤسسة بل بكندا «مع تكاثر أنظمة المعلومات، وتطور إمكانيات الاتصال، سيتزايد عدد الناس الذين يمارسون أعمالهم في بيوتهم، أو في مراكز العمل المحلية القريبة من بيوتهم».. وقد جاء في تقرير لمعهد المستقبل صدر عام ١٩٧١ «العديد من الأعمال التي يقوم بها المهندسون والمصممون وموظفوا المكاتب يمكن أن تتم في البيت، بنفس الكفاءة التي تتم بها في المكتب، وربما بشكل أفضل»..

وهذا ما يقود آلفين توفلر إلى الحديث عن «الكوخ الالكتروني»، أو «البيت الالكتروني». وهو بيتك المزود بأحدث وسائل الاتصال الالكتروني التي تتيح لك أن تمارس عملك وأنت جالس فيه لا تغادره. وهو يذكر عدة عوامل تدفعنا دفعاً إلى إشاعة «البيت الألكتروني»، وإلى الاعتماد على الاتصال وليس على الانتقال. فمعظم الدول الصناعية تعاني اليوم من أزمة الانتقال والمواصلات، ومن مشكلة توفير المكان المناسب لترك السيارات، ومن التلوث الناتج عن عوادم الاحتراق في السيارات، وهي أزمات ومشاكل يمكن أن تنتهي من حياتنا إذا ما اعتمدنا على الاتصال.

هذه الخطوة ستساعدنا على توفير عنصر هام في حياتنا هو الطاقة، فالطاقة اللازمة لاجراء الاتصال محدودة جداً، ولا تقارن بالطاقة التي ننفقها على الانتقال من مكان إلى آخر. كذلك لا يمكن أن نغفل عامل

الاقتصاد في الوقت. . فأنت تتصل في لحظة لكنك تحتاج إلى وقت في الانتقال. ويمكن أن ينعكس هذا في شكل يوم عمل أقصر، يتيح للانسان المزيد من الفرص لتعميق علاقاته الاجتماعية، وممارسة الهوايات التي يحبها.

ويرى توفلر أن نظام العمل من البيت يوفر استقراراً اجتماعياً، فلا يكون على العائلة أن تغير مكان إقامتها كلما غير عائلها عمله. كل ما يحدث في هذه الحالة هو أن يدخل كابلاً جديداً على الكومبيوتر الخاص به. وانتقال العمل إلى البيوت لن يؤدي فقط إلى توفير استهلاك الطاقة، بل سيتيح الاعتماد على أشكال متنوعة من الطاقة يسهل الوصول إليها في الأماكن المختلفة، ويحد من المركزية الشديدة في الطاقة التي نعاني منها حالياً.

وهناك عنصر اقتصادي هام في انتقال العمل إلى المنزل، فإنه يعني تحول الأشخاص الذين يمتلكون أدواتهم الالكترونية إلى شركاء في العمل، وليس مجرد موظفين تقليديين. أي أن الفرد سيصبح مالكاً لوسيلة الانتاج. مع احتمال أن يتضافر مجموعة من الجيران لتكوين ما يشبه الشركة الالكترونية الصغيرة، لتوفير المزيد من القدرات التكنولوجية والاقتصادية للمجموعة.

الكوميون الالكتروني

ويرى توفلر أسرة المستقبل قائمة على المساواة بين الرجل والمرأة. يرى الزوجة تقتسم مع الزوج الأجهزة الالكترونية التي في البيت لانجاز عملها الخاص، أو تزامل زوجها في نفس العمل، تتبادل معه ساعات

العمل. وهو يتصور أن هذا سيزيد التقارب بين الزوجين، ويتيح لهما تبادل الخبرات العملية، مما يساعد على قيام علاقات زوجية جديدة. عمادها التفاهم، وتتميز عن العلاقات الحالية بمزيد من السخونة. ويستطرد توفلر قائلاً إن مثل هذه العلاقات قد تحدث تغييراً في مفهوم الحب، وتصل بنا إلى ما يسميه الحب الأعلى أو الأكبر، الذي يتضمن إشباعاً جنسياً ونفسياً، بالاضافة إلى الإشباع العقلي.

وتباين أنماط ممارسة العمل في البيت الالكتروني ستقود إلى تنوع في اشكال الأسرة، وبالتالي تنوع في قواعد التعامل الفردي. وهو يرجح احتمال العودة إلى طراز الأسرة الكبيرة التي كانت شائعة في المجتمع الزراعي، والتي يطلق عليها توفلر اسم «كوميون الغد الألكتروني». وهو يرى أن هذا الوضع سيجعل الانتاج أكثر إنسانية، يتوافق مع الأشكال المتنوعة للنظام الأسري.

المهم أن هذا الكيان الجديد لأسرة الموجة الثالثة قد بدأ يتشكل، ليحل محل شكل الأسرة النووية الذي فرضته الحضارة الصناعية. وأسرة المستقبل ستشكل مؤسسة محورية في المجال الاجتماعي الجديد للموجة الثالثة.

التضخم والبطالة معاً لأول مرة

هذه التغييرات تقود الى تغيير مناظر في المؤسسات الاقتصادية. لقد عرف العالم الصناعي العديد من الأزمات، لكن الأزمة الجديدة التي يمر بها تختلف عن كل ما سبق، إنها لا تقتصر على المال ولكنها تمس جذور

هيكل نشاط المجتمع. وهي على عكس الأزمات السابقة تشيع التضخم والبطالة في آن واحد، وليس على التتابع. كما أنها ترتبط مباشرة بالمشاكل الأساسية لعلاقة الكائنات الحية بالبيئة، وبظهور أنماط جديدة تماماً من التكنولوجيا، وبظهور مستوى جديد من الاتصال يؤثر على النظام الانتاجي. إنها ليست، كما يزعم الماركسيون، أزمة الرأسمالية وحدها، لكنها أزمة تسود الدول الصناعية الاشتراكية أيضاً. إنها باختصار أزمة الحضارة الصناعية كلها، والتي تؤكد أن النظام الاقتصادي للموجة الثانية لم يعد مناسباً.

واليوم، بدأت الموجة الثالثة طرقاتها.. مدير المؤسسة الاقتصادية يواجه تحدياً لكل افتراضاته السابقة. المجتمع الضخم الذي نشأت على أساسه المؤسسة الاقتصادية الضخمة قد بدأ يتجزأ إلى مجتمعات صغيرة، وهذا التشرذم لن يقتصر على الاعلام والانتاج والحياة الأسرية، لكنه سيصل إلى سوق التوزيع وسوق العمالة أيضاً. وقد بدأت بالفعل معالم تفتت المؤسسات الضخمة إلى وحدات أصغر، أكثر تنوعاً، وتوزيعاً في أنحاء المكان.

إدانة المؤسسة الاقتصادية الكبيرة

واليوم، يركز النقاد الاقتصاديون على نواقص المؤسسات الاقتصادية الكبرى، يهاجمون القطيعة المفتعلة بين الاقتصاد، والسياسة، والأخلاق، وباقي أبعاد الحياة، إنهم لا يقتصرون على تحميل المؤسسة الاقتصادية مسؤولية الأداء الاقتصادي، لكنهم يعتبرونها مسؤولة بشكل.

متزايد عن كل شيء، ابتداء من أزمة تلوث البيئة إلى أزمة الموظفين. .
إنهم يأخذونها على أشياء مثل التسمم بمادة الأسبستوس، ومثل استخدام الفقراء كفئران تجارب في اختبارات العقاقير، وتخريب تطور الدول غير الصناعية، وإشاعة التفرقة العنصرية والطائفية والتمييز بين الجنسين، وغير ذلك من ضروب التآمر والخداع. إنها اليوم تتعرض للتشهير، نتيجة لمساندتها النظم والأحزاب الكريهة، ابتداء من جنرالات شيلي الفاشيست إلى دعاة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا.

وفي كل مؤسسة اقتصادية سنرى صراعاً داخلياً بين أولئك الذين يتمسكون بصيغة المؤسسة ذات الهدف الواحد، والمرتبطة بالموجة الثانية المحتضرة، وبين أولئك الذين يبدون استعداداً للتوافق مع اشتراطات الموجة الثالثة فيما يتصل بالانتاج، الذين يحاربون من أجل مؤسسة الغد متعددة الأهداف، التي لا تقيم نشاطها على حساب حياة البشر، والتي تدخل في حسابها كل الاعتبارات الاجتماعية والبيئية والاعلامية والسياسية والخلقية.

دلالة صراع الآباء والأبناء

إن ما يجري الآن هو انقلاب في معنى الانتاج، وفي مفهوم المؤسسات التي كانت وما زالت حتى الآن تتولى تنظيمه. والنتيجة، تحول مركب نحو طرز جديدة من مؤسسات الغد الاقتصادية. ويقول وليم هالال، أستاذ الادارة في الجامعة الأمريكية، «كما تم استبدال الاقطاعي بمؤسسة العمل عندما حل المجتمع الصناعي محل المجتمع الزراعي، كذلك نجد

أنفسنا اليوم مضطرين إلى استبدال النماذج القديمة من المشروعات بأشكال جديدة من المؤسسات الاقتصادية».

والتغيير الذي يطرأ على المؤسسة الاقتصادية، هو جانب من تغيير أكبر يطال المجال الاجتماعي ككل، يواكب ما يجري من تغيير في المجالين التكنولوجي والاعلامي. وهذه التغييرات مجتمعة ستصنع التحول التاريخي الضخم. فالمسألة ليست مجرد تغييرات ندخلها على هذه المؤسسات العملاقة. إننا نغير طريقة الحياة اليومية للبشر. إننا نغير الشفرة الأساسية التي كنا نعيش وفقها.

ويمكننا اليوم أن نلمس هذا التغيير في ملايين البيوت، في شكل صراع بين الاباء والأبناء حول الحياة والعمل والسلوك الشخصي. نرى اليوم الاباء في كل مكان، في أمريكا واليابان وروسيا وفرنسا، يتحدثون فيما بينهم عن تدهور أخلاقيات العمل، وعن فقدان الولاء للمؤسسات الكبرى، وعن ضعف الإحساس باهمية التزامن ودقة التوقيت واحترام النظام عند الصغار.

والسر الحقيقي وراء هذه الظاهرة الشاملة، هو أن شفرة جديدة للحياة بدأت تتشكل لتحل محل شفرة الحضارة الصناعية. شفرة تقوم على تفتيت الاقتصاد الضخم، والاعلام الجماهيري، وعلى تعديل مفهوم الأسرة والمؤسسة الاقتصادية. شفرة تهاجم ركائز الحضارة الصناعية، كمبدأ التزامن أو ضبط التوقيت ومبدأ النمطية وخضوع كل شيء للتوحيد

القياسي، ومبدأ المركزية الشديدة، إلى آخر هذه المبادىء التي فصلناها من قبل.

العمل لبعض الوقت فقط

لقد مضى عصر يوم العمل التقليدي في المصنع والمكتب من التاسعة صباحاً وحتى الخامسة بعد الظهر. لقد انتهى مفهوم الوقت النمطي الذي عرفته الحضارة الصناعية، وظهر مفهوم جديد للزمن. لقد تحدت الموجة الثالثة ذلك التوقيت الميكانيكي الذي كنا نلتزمه، وغيرت بذلك الايقاع الأساسي لحياتنا الاجتماعية، وحررتنا من قيود إيقاع الالة، وأرست قواعد ما يمكن أن نسميه «الزمن المرن».

الموجة الثالثة ، كما عمدت الى تفتيت جماهيرية الاعلام والكيان الهائل للمؤسسة الاقتصادية تسعى إلى تفتيت جماهيرية الزمن. وإلى أن تصبح ساعات العمل بالنسبة لأي إنسان مسألة تخضع لاختياره الحر. وقد بدأت تظهر تطبيقات الزمن المرن في كل مكان. وللتدليل على ذلك نورد ما نشرته مجلة أوروبا عام ١٩٧٢، إذ قالت وقتها إن ٢٠٠٠ مؤسسة في ألمانيا الغربية قد تخلت عن مبدأ التزامن في العمل. وجاء في احصائيات عام ١٩٧٧، أن ربع القوى العاملة في ألمانيا الغربية، ما يزيد على خمسة ملايين عامل، يعملون في أوقات متباينة، لا تخضع لتوقيت يوم العمل التقليدي. وقد أثبتت التجربة العملية أن هذا التنوع في مواعيد العمل قاد إلى المزيد من الانتاج، وإلى انخفاض نسبة التغيب عن العمل، بالاضافة الى مكاسب أخرى.

ويرى توفلر أن مدينة المستقبل لن تعرف فروقاً بين ساعات الليل والنهار في توزيع العمل. وأنه سيشيع فيها نظام العمل لبعض الوقت وفقاً لظروف الشخص أو استعدادته أو مزاجه. وسينعكس هذا على كل شيء.. ستعمل المحال العامة الأساسية ليل نهار، وسيعاد النظر في ساعات الارسال التليفزيوني، وفي مواعيد الوجبات، وفي نظام العمل بالبنوك. إن النمط الجديد للوقت سيؤثر على إيقاعنا اليومي في البيت، وعلى فنوننا، وعلى نظامنا البيولوجي.. ذلك لأنك ما إن تمس الوقت، حتى تمس كل الخبرات البشرية.

سيرفض إنسان المستقبل أن يدخل في قالب، سبق إعداده له، سواء باعتباره منتجاً أو مستهلكاً.

إننا نتقدم إلى عصر التعدد والتنوع في كل شيء، وفي أساليب الطاقة المستخدمة، في وسائل الاعلام التي نتصل بها، في أسعار البضائع وأشكالها، في الأحزاب التي ننتمي إليها، وفي الأفكار التي نجتمع حولها.. لن يقتصر الامر على شيوع سياسة الانتاج حسب الطلب والعمل حسب الطلب والفن حسب الطلب، بل ستصبح رؤيتنا للعالم من حولنا حسب الطلب أيضاً!

الشبكة وليس الهرم

كل ما يميز جوهر الحضارة الصناعية يتهاوى..

المركزية بدأت تفقد أنصارها، وفي كل مرفق من مرافق الحياة نتجه نحو اللامركزية أو الاقليمية أو المحلية. المؤسسات الاقتصادية الضخمة

تتحول فعلاً إلى ما يطلق عليه «مراكز الربح» المتعددة. البنوك العملاقة نبتت من حولها البنوك الصغيرة الاقليمية.

عشق الضخامة وبلوغ الأرقام القياسية سينتهي. . سيسقط شعار «تخصص لتنجح»، سيكون للآباء رأى في مناهج التعليم، وللمرضى رأي في تسير المستشفى يفرضونه على الاخصائيين. . سيسود شعاراً «ليس من الضروري أن تكون خبيراً لكي تعرف ما تريد».

منظمة المستقبل ستعمل على نمط «الشبكة» وليس على نمط «الهرم»، ستكون لا مركزية، تتكون من أجزاء مترابطة ذات ترتيب وقتي خاص بين كل جزء وآخر، ولكل جزء منها علاقته الخاصة بالعالم الخارجي، وله أيضاً سياسته الخارجية الخاصة التي لا تتطلب مراجعة الادارة المركزية. سيكون هذا التنظيم مرناً، يتحور وفقاً للظروف، ويعيد ترتيب العلاقة بين أجزائه وفق مقتضيات المصلحتين العامة والخاصة. لقد كتب توني جادج. أحد ألمع أصحاب النظريات التنظيمية، يتحدث عن صيغة «الشبكة» التي ستقوم عليها مؤسسة المستقبل، والتي لا تخضع لتنسيق علوي، بل تتولى عناصر هذه الشبكة التنسيق فيما بينها، وهو ما يطلق عليه تعبير «التوافق الذاتي».

«المتهلك» طراز المستقبل

ثم يعود توفلر بعد ذلك الى الحديث عما أطلق عليه «المتهلك»، قاصداً المنتج المستهلك لانتاجه. . لقد شرحنا من قبل كيف كان إنسان

الموجة الأولى ينتج ما يستهلكه، وكيف أنه لم يكن منتجاً أو مستهلكاً بالمعنى السعاصر. لكن ما إن هبت رياح الحضارة الصناعية حتى أحدثت الهوة الحالية بين الانتاج والاستهلاك، مما قاد إلى حتمية ظهور شبكة المبادلة بين المنتجين والمستهلكين، التي نعرفها باسم السوق. تلك السوق التي أخذت تنمو وتتضخم بتسارع متلاحق، راسمة خريطة كل نشاط في المجتمع الصناعي.

يقول توفلر إن الأمر لم يكن على هذا التبسيط، فمنذ البداية كان هناك قطاعان من قطاعات الانتاج: قطاع الانتاج من أجل الاستخدام، وهو القطاع «أ»، وفيه أزرع قمحاً لاحصده وأصنع منه خبزاً آكله. وقطاع الانتاج من أجل المبادلة، وهو القطاع «ب»، وفيه أصنع أسلحة للفئوس أقدمها الفلاحين في مقابل القمح الذي آخذه منهم وأصنع منه الخبز.

يقول توفلر إنه رغم شيوع القطاع «أ» في المجتمع الزراعي، فقد كان للقطاع «ب» نشاط نسبي ضعيف. لكن الوضع انعكس تماماً في الحضارة الصناعية، تضخم قطاع الانتاج من أجل المبادلة أو السوق، وبقيت مظاهر محدودة من الانتاج بهدف الاستخدام.

إلا أن كلمة اقتصاد في الحضارة الصناعية لم تكن تتضمن سوى الانتاج من أجل السوق، وأغفلت حضارة الموجة الثانية أي شيء عن «المنتهلك». وهي بهذا تستبعد كل الأعمال المنزلية التي تقوم بها المرأة، كالكنس والمسح والغسيل والطهي ورعاية الأطفال، باعتبارها من الأمور

الخارجة عن النشاط الاقتصادي. وبرغم أن النشاط الاقتصادي الذي تكلموا عنه، لم يكن ليتواصل لولا ذلك النوع من النشاط المنزلي.

أصنعها بنفسك

واليوم، بينما تعاني مجتمعات الموجة الثانية من أزمتها الكبرى والأخيرة، ما زالت تتجاهل أي شيء عن قطاع الانتاج «أ»، او جهد المنتهلك، على الرغم من الاتساع المتزايد لنطاقه هذه الايام، بعد شيوع شعار «اصنعها بنفسك»، والذي أتاح للانسان أن يقوم في منزله بالعديد من الأعمال التي كانت توكل عادة للحرفيين. ونحن نرى مظاهر هذا الشيوع في المحال العامة على شكل سيل من الصناديق التي تضم أدوات النجارة والسباكة والطلاء ولصق ورق الحائط او الموكيت، وتصنيع قطع الأثاث، بالاضافة إلى سيل مناظر من الكتب التي تشرح لك كيف تقوم بكل شيء.

ويقول توفلر إن شعار «اصنعها بنفسك» لم يقف عند حد الأعمال الحرفية، وهو يورد قوائم بالجمعيات والروابط الفئوية، التي يتعاون أفرادها فيما بينهم لحل مشاكلهم بأنفسهم، سواء كانت نفسية أو اجتماعية أو سياسية او صحية، مما يعني الاستغناء عن جانب من خدمات الاخصائيين المحترفين.

ويعقد توفلر مقارنة بين مبيعات الأدوات الكهربائية منذ عشر سنوات والان. كان المحترفون منذ عشر سنوات يشترون ٧٠ في المائة من هذه الأدوات، بينما يشتري الأفراد العاديون ٣٠ في المائة منها. أما الان فقد انقلبت الآية، فأصبح هواة النشاط الذاتي يشترون ٧٠ في المائة منها.

بالطبع ساعد على هذا تصاعد أجور الحرفيين بشكل متواصل.

موازياً لهذا الاتجاه، نرى تصاعداً في الخدمات الذاتية بالسوق. وفيها يقوم المستهلك ببعض الجهد في سبيل خفض طفيف في سعر السلعة، وهو ما يقوم عليه نظام «السوبر ماركت»، حيث يقوم المشتري بدور البائع في نفس الوقت. وقد بدأت تظهر العديد من التطبيقات لهذا المبدأ، وفي أعقاب أزمة الطاقة عام ١٩٧٣، ظهرت محطات الوقود التي تتزود فيها بوقود السيارة بنفسك، وفي غيبة العامل. ثم ذلك الانتشار الواسع لنظام المصرف الالكتروني، حيث يقوم العميل بنفسه بعمليات الايداع والسحب.

هذا التحول المتواصل من المستهلك للقيام بالعمل الانتاجي يحدث تغييراً جذرياً في أكثر المؤسسات الاقتصادية أهمية، نعني بذلك السوق، التي كانت قد قامت أصلاً لسد الفجوة بين الاستهلاك والانتاج.

السوق.. هدف الضربة الكبرى

عودة نمط «المنتهلك»، مدعوماً بالارتفاع الصاروخي في أجور الحرفيين، وبتداعي الخدمات البيروقراطية، وبتوفر تكنولوجيات الموجة الثالثة، وبتصاعد مشاكل البطالة، يقود هذا وغيره إلى ظهور نمط جديد للعمل ولنظام الحياة. وإذا أدخلنا في الاعتبار ما سبق أن طرحناه من أفكار، مثل الرجوع عن مبدأ التزامن مع الالة الذي فرضته الحضارة الصناعية، وشيوع نظام العمل لبعض الوقت، وظهور البيت الألكتروني كوحدة انتاجية، والتغيرات المتوقعة في تركيب الاسرة، أمكننا ان

نستخلص المزيد من معالم المستقبل.

سنرى اقتصاداً يقوم على أساس العمل لبعض الوقت، مما يقتضي تعريفاً جديداً لمعنى يوم العمل الكامل، ولمعنى الفراغ. فقد ثبت أن نسبة كبيرة مما نطلق عليه وقت الفراغ ينفقها الانسان في انتاج ما يحتاج إلى استهلاكه باعتباره «منتهلكاً». ومن هنا سنرى سقوطاً للفواصل الحالية بين العمل ووقت الفراغ.

ومع نمو قطاع «أ» من الانتاج، قطاع «المنتهلك»، والذي يعني الانتاج للاستهلاك الشخصي، من المتوقع أن نشهد تغيراً شديداً في بناء شخصية الانسان. وسيكون على رجال الاقتصاد في الموجة الثالثة أن يستنبطوا نماذج ومقاييس جديدة للتعامل مع قطاع الانتاج «أ»، الذي طال إهماله على يد اخصائيي الموجة الثانية.

ولكن.. ما الذي سيحدث للسوق، ـ مصدر النفوذ ـ التي تربعت على عرش حضارة الموجة الثانية طويلاً؟..

٣٠٠ سنة فقط

لقد عمل الجنس البشري منذ عشرة آلاف سنة على تطوير شبكة المبادلة المعروفة باسم السوق.

وخلال ٣٠٠ سنة مضت، بدأت هذه العملية تأخذ دفعاً صاروخياً على يد الموجة الثانية، إلى حد أن فرضت السوق على حياتنا وعلى عالمنا بأكمله. ومع النمو المطرد الحالي لنمط «المنتهلك»، لنا أن نتوقع نهاية

لسطوة السوق، وحداً لفعالينها في حياتنا.

ثلاثة عوامل ساعدت على قيام السوق:

● اندفاع التجار المبشرين بحضارة الموجة الثانية إلى دعوة وإجبار المزيد من البشر على الدخول الى السوق.

● العمل على ابتكار بضائع وخدمات جديدة لمجرد توسيع نطاق السوق.

● تزايد تعقيد وتركيب المجتمع والنشاط الاقتصادي، مما اقتضى المزيد من الوسطاء الذين يكونون جانباً أساسياً من جسم السوق.

واليوم تتجه كل المؤشرات إلى هبوط قوة دفع هذه العوامل، مما يوحي بانتهاء سطوة السوق. فالتوسع في إدخال البشر إلى السوق بلغ غايته بوصول السوق إلى كل مكان. وقد تزايدت تكاليف عملية التبادل ذاتها تزايداً جنونياً، جعلها تزيد في كثير من الاحيان على تكاليف السلعة التي يجري تبادلها. وظهرت صناعات الكترونية وتكنولوجيات حديثة، لا تستلزم بطبيعتها تحمل عبء هذا الجهاز الضخم، ولا تحتمل تكاليف السوق الخرافية.

ما وراء السوق

لقد أوصلنا السوق إلى عالم لم يعد لأحد فيه أن يتحكم في مصيره.. لا أحد ولا دولة ولا ثقافة تملك أمر نفسها. لقد حملت السوق معها عقيدة أن التكامل مع السوق عمل «متحضر» وأن الاكتفاء الذاتي بعيداً عنه عمل

«متخلف». وأشاع بيننا المادية المفزعة، وعقيدة أن الاقتصاد والدوافع الاقتصادية هي القوى الأساسية في الحياة البشرية. ونشر رؤية للحياة باعتبارها تتابعاً في التعاملات التعاقدية، وللحياة باعتبارها كياناً يتشكل نتيجة لترابط«عقود الزواج» أو «العقود الاجتماعية». لقد صبغ فكر التسويق كل قيمنا وأفعالنا، وحدد معالم حضارة الموجة الثانية.

وها هي الموجة الثالثة قد جاءت لتقدم لنا حضارة «ما وراء السوق» لأول مرة في تاريخ البشرية.

يقول توفلر «أنا لا أعني بتعبير ما وراء السوق عالماً مرتداً إلى مجتمعات صغيرة معزولة تعتمد على نفسها بشكل نهائي، غير قادرة أو قابلة للمتاجرة مع غيرها. . أنا لا أعني خطوة إلى الخلف. بل أعني بتعبير ما وراء السوق حضارة تعتمد على السوق، لكنها ليست، كما كان الوضع، مستهلكة بالحاجة الملحة إلى تشييد وتوسيع وتنشيط هذه السوق وتحقيق التكامل لها».

هذه التغييرات التي ستمس عمق أعماق البناء الاقتصادي الحالي، هي جانب من نفس موجة التغييرات التي تدق بقوة اليوم على أسس النظم الحالية للطاقة والتكنولوجيا والاعلام والمؤسسات العملية والعائلية. وهي جميعاً تدخل في نسيج واحد، يشكل الطريقة التي ننظر بها إلى الحياة.

وهكذا، يمكننا أن نلمس ما يطرأ من تغيرات ثورية على ما أطلقنا عليه اسم «الرؤية الصناعية»، أو نظرة الحياة التي أشاعتها حضارة الموجة الثانية.

الفصل السابع

متى نتعلم حرفة الأمل؟

في معظم دول العالم، لم يحدث من قبل أن وقع مثل هذا العدد الكبير من المتعلمين، وربما أصحاب الثقافة العالمية، في مثل هذا اليأس العقلي، بعد أن غرقوا في دوامة الأفكار المتصارعة المختلطة المتنافرة الباعثة على الارتباك.

كل يوم جديد يأتي ببدعة جديدة أو اكتشاف علمي، أو عقيدة، أو حركة فكرية، أو بيان اجتماعي. . آلاف التيارات المضادة تندفع أمام حيز الادراك: عبادة الطبيعة، الإدراك الحسي الخارق، العلاج الكلي، البيولوجيا الاجتماعية، البنيوية، الماركسية الجديدة، علم الطبيعة الحديث، الصوفية الشرقية، الهوس بالتكنولوجيا والخوف المرضي منها.

إننا نشهد اليوم هجوماً متصاعداً على العلوم المستقرة، ونرى إحياء للاديان والعقائد البدائية، وبحثاً يائساً عن شيء - أي شيء - يمكن أن نؤمن به.

يقول آلفن توفلر إن معظم هذا الخلطهو في حقيقته حصاد حرب ثقافية متصاعدة نتجت عن تصادم ثقافة الموجة الثالثة الصاعدة، مع الأفكار الشائعة والاستخلاصات القديمة للمجتمع الصناعي. . إننا نشهد اليوم

تمرداً فلسفياً يستهدف الاطاحة بالافتراضات التي سادت العالم على مدى ٣٠٠ سنة مضت.

إذا كانت الحضارة الصناعية تنظر إلى الطبيعة على أنها شيء وجد لكي نستغله بشكل كامل، واعتبرت نفسها في حرب مع الطبيعة، فإن ثقافة الموجة الثالثة تمضي بنا إلى طريق التوافق مع الطبيعة، والحرص على كوكبنا وعلى الغلاف الجوي المحيط به.

كذلك تتغير نظرتنا إلى التطور. علماء الاحياء والحفريات والأجناس، الذين يتصدون لمحاولة كشف أسرار التطور، يجدون أنفسهم أمام عالم أكثر تعقيداً وتركيباً من ذلك الذي تصوره داروين بداية. . لقد تبينوا ان القوانين التي كان ينظر إليها يوماً ما على أنها شاملة، ثبت عملياً أنها لا تنطبق في الحقيقة إلا على حالات خاصة.

ونشأ بين علماء الاحياء تساؤل حول التطور البيولوجي للكائنات: هل هو نتيجة الأنواع والانتخاب الطبيعي، أم انه يتم على المستوى الجزيئي، بحيث يؤدي تراكم الأنواع إلى «تحول وراثي» دون الاعتماد على الانتخاب الطبيعي الداروني؟.

بل لقد بدأ يهتز أحد المبادىء الأساسية، مبدأ خروج الأشكال الأكثر تعقيداً من الأشكال الاكثر بساطة. الابحاث الحديثة تفيد أن الأشكال الأبسط من الحياة قد تأتي من الأشكال الاكثر تركيباً. كما تشير الى أن التطور يمكن أن يتحقق في قفزات.

والأكثر من هذا، يقوم علماء هندسة الجينات في أنحاء العالم، داخل

معاملهم، بخلق أشكال جديدة تماماً من الحياة، أي انهم بذلك يتجاوزون عملية التطور ذاتها. مما يعني أننا على وشك أن نصبح مصممي التطور.

مقياس أفلام هوليود

كذلك يمتد التغيير إلى أحد أهم مبادىء الموجة الثانية، وهو مبدأ التقدم، أو منبع التفاؤل الذي كانت تعيش عليه الحضارة الصناعية، والقائل إننا نسير، بلا رجعة، على طريق التقدم في ظل هذه الحضارة.

إلا أن الضربات الأولى للموجة الثالثة، في الخمسينيات والستينيات، على أعمدة الحضارة الصناعية، أحدثت انقلاباً في هذه الصورة، وحل احساس شامل بالتشاؤم بالنسبة لمستقبل الانسان في ظل هذه الحضارة. ولعل خير دليل على هذا ما جرى من تحول مضمون أفلام هوليود، فبعد بطولات الثلاثينيات والأربعينيات ظهر إنسان الستينيات ضائعاً حائراً منهاراً، وكان المضمون المتكرر في الأفلام هو أن الحياة لعبة ليس فيها رابح. وفي عالم اليوم يشيع بشكل متسارع ومتزايد اعتراف بأنه لم يعد من الممكن قياس التقدم بمصطلحات التكنولوجيا أو بمعايير المعيشة المادية وحدها. وبأن المجتمع الهابط خلقياً وجمالياً وسياسياً، أو المجتمع الذي يعاني من مشاكل البيئة، لا يمكن اعتبارة متقدماً، أياً كانت درجة ثراء ذلك المجتمع، وأياً كان تقدمه التكنولوجي.

بدأت تنهزم فكرة أن المجتمعات يجب ان تسير على طريق واحد إذا ما

استهدفت التقدم، لتحل محلها فكرة إمكان تحقيق التقدم في المجتمعات بطرق مختلفة.

معنى جديد للزمان والمكان

وكما تخضع مضامين الطبيعة والتطور والتقدم لتغيرات جذرية، تتغير مفاهيم الزمان، والمكان والفضاء والمادة والسببية. في هذا يقول جون جريبين، عالم الطبيعة الفلكية والكاتب العلمي «... لم يعد الزمان شيئاً ينساب إلى الامام بلا رجعة، وفقاً لايقاع ساعاتنا وتقاويمنا، لكن الثابت علمياً أنه في طبيعته يدور وينبسط وينكمش، وفقاً للموقع الذي تجري منه قياساتك.. بل إن بإمكان الثقوب السوداء أن تحيله كلية إلى زمن سلبي..». وهذه ليست حقيقة جديدة، فقد سبق أن أشار إليها اينشتين من قبل.

وإذا تركنا عالم الاجرام العملاقة، إلى الحياة الميكروسكوبية للجسيمات والأمواج، سنواجه ظاهرة محيرة أخرى. فنتيجة للتجربة المعملية اضطر الدكتور جيرالد فينبرج، من جامعة كولومبيا، إلى افتراض وجود جسيمات سماها «تاكيونات» تتحرك أسرع من الضوء، مما يعني امكان سير الزمن إلى الخلف!..

وإذا بدت هذه الاكتشافات النظرية حالياً بلا تطبيق عملي في حياتنا اليومية، فكذلك كانت تبدو تلك الرموز والمعادلات المبعثرة بالطباشير فوق سبورة العلماء، والتي قادت بعد ذلك إلى تحطيم الذرة.

وفي نفس الشيء ينسحب على رؤيتنا للمكان فقد ادخلتنا الموجة الثالثة في علاقة جديدة مع الفضاء، أو المكان. فهي تسعى إلى بعثرة البشر فوق سطح الأرض بدلاً من حركة التركيز التي باركتها الحضارة الصناعية. ستشجع الانسان على الاستقرار في بيته، والعمل فيه أو قريباً منه، وستنهي اضطرار العامل إلى الهجرة سعياً وراء فرصة العمل، ستجعله ينتقل أقل، ويتصل أكثر فأكثر.

هذه التغيرات العميقة في رؤيتنا تؤكد أننا نتحرك من ثقافة الموجة الثانية التي تتبنى دراسة الأشياء بمعزل عن غيرها، إلى ثقافة الموجة الثالثة التي تؤكد على رؤية الشيء في محيطه، وعلى اعطاء أهمية كبرى للعلاقات بين الأشياء، وباختصار على مبدأ «الكلية»، ومبدأ السعي لتحقيق التوازن بالنسبة للكل، وليس على حل الجزئيات.

اهتزاز قانون السببية

وأخيراً، يصل التغيير إلى أعماق قانون السببية الذي يقوم عليه فكر الحضارة الصناعية، والذي يقول إنه في ظل الظروف الواحدة نحصل دائماً على نفس النتائج. فمع الفائدة العظمى التي تحققت في حياتنا العملية. باعتمادنا على هذا القانون، إلا أن بعض الظواهر ثبت أنها تستعصي عليه. وتبين أن قانون السببية حالة خاصة لا يجوز تعميمها على الإطلاق.

أما قانون السببية الخاص بالموجة الثالثة فيستمد كيانه من المضمون

الأساسي لنظرية النظم، أو من فكرة التلقيم المرتد، أو التغذية المرتدة. ومثلها التقليدي البسيط هو الثرموستات في جهاز التكييف مثلاً، الذي يعمل على حفظ درجة حرارة الحجرة عند حد معين، فإذا ارتفعت الحرارة عن ذلك، يعمل الثرموستات على تشغيل الجهاز ليخفض الحرارة إلى الدرجة المطلوبة، وعندما يتحقق هذا يتلقى الجهاز أمراً من الثرموستات بالتوقف. هذا النوع من التلقيم المرتد يكون هدفه تحقيق التوازن، ويطلق عليه التلقيم المرتد السلبي. ونحن نجد العديد من تطبيقاته في مجالات الفسيولوجيا والسياسة، وغير ذلك من مجالات الحياة العامة.

إلا أنه في بداية الستينات، بدأ الأستاذ ماجورو ماروياما، الياباني الأصل، يلاحظ أننا نهتم بالاستقرار ولا نعطي نفس الاهتمام للتغيير. ودعا إلى دراسة ما أسماه «التلقيم المرتد الايجابي»، الذي لا يمنع التغيير، بل يضخمه ويزيد من قدره. ويقول ماروياما إن التلقيم المرتد الايجابي هو الذي يكثف الانحراف الصغير في النظام، ويزيد من حجمه، ليحقق تغييراً يهدد كيان ذلك النظام بأكمله. وقد فسر ماروياما العديد من الظواهر بهذا المبدأ، ومن بين ذلك ظاهرة سباق التسلح بين الشرق والغرب.

ويقول توفلر: عندما نضع التلقيم المرتد السلبي إلى جوار الايجابي، سنرى إلى أي حد تلعب هاتان العمليتان دورهما الهام في التركيبات المعقدة، من المخ البشري إلى النظام الاقتصادي، وسنخرج من هذا ببصيرة مدهشة.. سنعرف لماذا تقود الظروف المتشابهة إلى نتائج غير متشابهة.. وسنتبين ما إذا كانت تحكمنا الضرورة أم الصدفة.. إن هذه

البصيرة تساعدنا على الخروج من سجن «إما» و«أو» الذي طال بقاؤنا فيه.

الدولة، وضغط من أعلى وأسفل

هذا التغيير الجذري الذي سيطرأ على الايديولوجية العليا لحضارة الموجة الثانية، يصاحبه تغيير آخر يطرأ على صفوته العليا، نعني بذلك نظام الدولة ذاته.

ونظام الدولة يعاني اليوم من ضغطين يهددان كيانه الحالي، أحدهما عبارة عن مجموعة من القوى تسعى إلى نقل السلطة السياسية من أعلى إلى أسفل، من الدولة إلى الأقاليم والجماعات. والآخر عبارة عن مجموعة قوى أخرى تسعى الى نقل السلطة السياسية من الدولة الى أعلى، أي إلى المنظمات الدولية والمؤسسات العالمية. وهذان الضغطان سيؤديان بالضرورة إلى تمزيق الدول ذات التكنولوجيا المتطورة إلى وحدات أصغر وأقل قوة. وخريطة العالم الحالية تؤكد هذا التحليل، وتؤكد أن هذين الضغطين يؤثران بنفس القدر في الولايات المتحدة الامريكية وفي الاتحاد السوفييتي.

هذا التشرذم لن يمس نظام الدولة فقط بل سيمتد أثره إلى المؤسسات الاقتصادية والاتحادات التجارية والجماعات السياسية والعرقية والثقافية. والغريب، أنه في الوقت الذي تسعى فيه الدول الفقيرة إلى اكتساب هوية الدولة، باعتبارها أمراً ضرورياً لقيام صناعة ناجحة «على الأقل بمنطق الحضارة الصناعية»، في نفس هذا الوقت تواجه الدول الغنية التي تجاوزت عصر التصنيع انتقاصاً دائماً لدور الدولة.

باختصار، نحن نتحرك نحو نظام عالمي يتكون من وحدات صغيرة ترتبط فيما بينها ارتباطاً قوياً، مثل النيورونات أو الخلايا العصبية التي في المخ، وليس كما في النظام البيروقراطي: وحدات صغيرة تنتظم داخل ادارة كبرى.

وظهور الموجة الثالثة، لا يسقط فقط أفكار ومؤسسات الموجة الثانية، لكنه ينسف كل ما تعارفنا عليه من أفكار للقضاء على الفقر في العالم، ويسقط المبررات الكاذبة التي تسوقها الدول الصناعية المتحضرة لفشل الدول النامية في التطور والتصنيع. وفي هذا يقول توفلر «استراتيجيات تطور الغد لن تأتي من واشنطن أو موسكو أو باريس أو جنيف، بل ستأتي من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.. ستكون نابعة من الحاجات المحلية الفعلية ومتوافقة معها.. استراتيجيات لا تعطي اهتماماً مبالغاً فيه للاقتصاد على حساب البيئة أو الثقافة أو الدين أو البناء الاسري، أو الابعاد السيكلوجية للوجود.. استراتيجيات لا تقلد الاشكال السابقة»..

تجنب أسوأ ما ينتظرنا

واليوم.. لم نعد حيث كنا منذ عشر أو عشرين سنة مضت، تنتابنا الحيرة نتيجة للتغيرات العديدة التي تجري من حولنا، لا ندرك ما بينها من علاقات. لقد بدأت تبدو لنا من خلال خليط التغيرات صورة متزايدة الوضوح للمستقبل الذي بدأ يتشكل.

إن ما يجري ليس مجرد ثورة تكنولوجية، لكنه مقدم حضارة جديدة

متكاملة بكل معنى الكلمة. . ومع ذلك فاستتاب هذه الحضارة الجديدة في حياتنا لن يكون على شكل رحلة ناعمة سهلة، ففترة التحول التي نعبرها حالياً ستصطبغ بالقلاقل الاجتماعية الشديدة الوطأة، تصاحبها تذبذبات اقتصادية وحشية، وصراعات وانقسامات شديدة، ومحاولات يائسة متتابعة من أنصار الحضارة الصناعية، وكوارث تكنولوجية، واضطرابات سياسية، وعنف وحروب.

إن سيادة الحضارة الجديدة لن تتم بدون مقاومة أو عوائق، ففي ظل تحلل المؤسسات والقيم القديمة، سيسعى دعاة النظم الفاشيستية والحركات الشمولية إلى الاستيلاء على السلطة. ومع ذلك فالاحتمالات لا يمكن أن تكون في صف التخريب والفوضى، بل ستكون حتماً في جانب ارادة الحياة والوجود.

من المهم أن نعرف جيداً إلى أين تأخذنا اندفاعات التغيير الاساسية، وأي عالم يمكن أن يتشكل حولنا، إذا ما أمكننا تجنب أسوأ ما ينتظرنا من مآزق ومتاعب. . وأن نعي جيداً صورة المجتمع الجديد الذي يتشكل أمامنا.

ويمكن أن نعيد تلخيص معالم حضارة الموجة الثالثة في النقاط التالية:

تنوع مصادر الطاقة

حضارة الموجة الثالثة، على عكس سابقتها، سيكون عليها أن تستنبط تشكيلة جديدة عجيبة من مصادر الطاقة: من الايدروجين، والشمس،

وحرارة الارض الجوفية، والأمواج، وشحنات البرق.. وربما طاقة متطورة من الاندماج النووي النظيف، بالاضافة إلى مجموعة أخرى من مصادر الطاقة الجديدة التي لا يمكن لاحد في الثمانينيات أن يتصورها.

الانتقال إلى الاسس الجديدة المتنوعة للطاقة لن يكون سهلاً، ويتحقق من خلال تقلبات شديدة بين توفر ونقص المنتجات، والارتفاع الجنوني في الأسعار.

● **تنوع الأسس التكنولوجية**

ستعتمد حضارة الموجة الثالثة على قواعد تكنولوجية أكثر تنوعاً بكثير مما هو حادث: تكنولوجيات بيولوجية، ووراثية والكترونية، ثم تكنولوجيا الفضاء الخارجي وأعماق المحيطات. بينما تتطلب بعض هذه التكنولوجيات قدراً عالياً من الطاقة، فإن أغلب تكنولوجيات الموجة الثالثة ستكون مصممة بحيث تستخدم طاقة أقل. كما أن هذه التكنولوجيات لن تتطلب ضخامة في الانتاج أو مخاطر على البيئة.. ستفرض الانتاج على نطاق صغير، سهل في تشغيله، تستغل فيه عوادم الانتاج كمواد خام في صناعة جديدة.

واهم المواد الخام في حضارة الموجة الثالثة هي المعلومات التي تحيي الخيال.. وهي مواد خام لا يمكن أن تستنفد.. من خلال الخيال والمعلومات سيتم التوصل إلى بدائل للمواد المتناقصة، وإن كان التحول إلى هذه البدائل سيتضمن بالضرورة قلاقل اقتصادية، واضطرابات في سوق المال.

● **وسائل اتصال ليست جماهيرية أو نمطية**

مع تزايد أهمية المعلومات، بشكل لم يسبق له مثيل، ستعيد الحضارة الجديدة تشكيل التعليم، وتعيد تعريف البحث العلمي، والأهم من هذا وذاك ستعيد تنظيم وسائل الاتصال الجماهيرية. وحضارة الموجة الثالثة بدلاً من أن تخضع ثقافياً لعدد محدود من وسائل الاتصال الجماهيرية، ستقوم على وسائل اتصال جزئية غير جماهيرية، قوية التفاعل فيما بينها، تغذي رؤى متنوعة إلى أقصى حد، وشخصية للغاية. وهذا التحول نحو مجتمع يقوم على المعلومات، ويعتمد على الكترونيات عالية، سيعمل على عكس المفهوم الخاطىء الشائع على خفض احتياجاتنا من الطاقة عالية التكلفة.

● **انماط جديدة من العمل**

هذا الاندماج بين أشكال متنوعة للطاقة والتكنولوجيا، ووسائل اتصال واعلام متنوع وغير جماهيري، سيعجل بالتغيرات الثورية في الطريقة التي نعمل بها. ففي حضارة الموجة الثالثة لن تعود للمصنع وظيفته الحالية كنموذج أساسي لغيره من المؤسسات. ولن يظل محتفظاً بطبيعته في الانتاج على نطاق واسع، بل سينتج سلعاً شخصية وحسب الطلب. وبفضل التطور التكنولوجي الالكتروني، لن يكون العمل في مصنع المستقبل آلياً متكرراً أمام خط التجميع، بالصورة الكاريكاتورية التي رسمها شارلي شابلن في «العصور الحديثة». كما ستقام مصانع الموجة الثالثة خارج العواصم الكبرى، وستكون أصغر حجماً، فتكون من

وحدات أشد صغراً، وتتمتع كل وحدة منها بدرجة أعلى من الادارة الذاتية.

كذلك سيتغير وجه المكتب في المؤسسات الادارية، حيث تقوم الأجهزة الالكترونية بدلاً من البشر بالعديد من الاعمال الادارية الحالية، بكفاءة أعلى وتكلفة أقل.. سيختفي الورق من المكاتب وتحل محله الذاكرات الالكترونية.

لكي تعمل مصانع ومكاتب المستقبل بكفاءة، ستحتاج إلى أشخاص قادرين على التمييز وعلى اتخاذ القرار، وعلى ممارسة التفكير الخلاق، في مكان ما يعتمدون عليه حالياً من استجابة آلية. وهذا بدوره سيقتضي تغييراً جذرياً في أسلوب الدراسة والنظام المدرسي.

● البيت مقراً للعمل

أكثر التغيرات المتصلة بالموجة الثالثة لفتاً للنظر سيكون تحول من المصنع والمكتب إلى البيت. بالطبع لن تنتقل كل الاعمال إلى البيوت، إنما سيشجع على المضي في هذا السبيل انخفاض نفقات الاتصال إذا قيست بنفقات الانتقال، وتزايد دور الخيال والذكاء في الانتاج، واختفاء العمل اليدوي القاسي أو العمل العقلي الروتيني. وسيعمل في مصانع الموجة الثالثة من يجب عليهم فعلاً التعامل المادي مع الخامات. ويرى توفلر أنه مع تزايد دور المعلومات في حياتنا، ستتولى الجامعة معظم ما يقوم به المصنع حالياً، وستصبح المؤسسة المركزية في حياتنا.

● شيوع نمط «المنتهلك»

ستساعد التغيرات السابقة في فهم دلالة اندماج الانتاج بالاستهلاك ثانية، وقيام ما يطلق عليه توفلر تعبير «المنتهلك»، أي من ينتج ليستهلك انتاجه. ستعتمد حضارة الموجة الثالثة على قطاع طال اغفاله خلال سنوات الحضارة الصناعية، وهو قطاع الانتاج من أجل الاستهلاك الشخصي وليس من أجل التبادل. سيشيع قطاع «افعلها بنفسك»، على حساب قطاع «افعلها للسوق». وسيقود هذا تفكير جذري جديد في مشاكلنا الاقتصادية، من بطالة وتأمين اجتماعي ودور العمل في حياتنا.. وسيؤدي إلى تقدير جديد لدور العمل المنزلي من الناحية الاقتصادية، مما يقود إلى تغير نظرتنا إلى المرأة.

● ايديولوجيات عليا جديدة

سيتبنى أبناء الموجة الثالثة استخلاصات وأفكاراً جديدة حول الطبيعةوالتقدم والتطور والزمان والمكان والمادة وقانون السببية.. لن يستمدوا تفكيرهم من القياس على الالة وطبيعة عملها.. لهذا سيظهر حشد من العقائد الجديدة، والرؤى الجديدة للعلوم، ولطبيعة الانسان، وستظهر أشكال جديدة في الفن.. وسيكون هذا على درجة من التنوع والثراء لم تتحقق للانسان من قبل.

● انحسار سلطة الدولة

التنوع المتزايد في المجتمع سيعني انخفاضاً في دور الدولة، التي ما زالت تعتبر حتى الان القوة العظمى للتوحيد القياسي وتحقيق النمطية. ستقوم حضارة الموجة الثالثة على توزيع جديد للقوة لا تصبح للدولة فيه نفس قوتها الحالية، ويضاف ما تفقده من سلطة وقوة إلى مؤسسات جديدة، عالمية واقليمية محلية.

ستكتسب الاقاليم سلطة أكبر مع تشرذم اقتصاديات الدولة وسوقها. وقد تنشأ تحالفات جديدة، ليس على أساس التقارب الجغرافي، ولكن على أساس وحدة التوجهات البيئية والاقتصادية والدينية. ولن يتم هذا من خلال سلطة عالمية، بل من خلال شبكة تنظيمات، تتبادل العلاقات والتأثير.

● أمل جديد للشعوب الفقيرة

الدول غير الصناعية، التي تكون ثلاثة أرباع الجنس البشري، ستحظى بأدوات جديدة في صراعها مع الفقر، ولن تضطر إلى تقليد نمط مجتمعات الموجة الثانية بشكل أعمى، كما لن ترضى بظروف الحياة الخاصة بالموجة الأولى. وستظهر استراتيجيات تطور وتنمية جذرية في جدتها، تعكس الخصائص الدينية والثقافية الخاصة لكل منطقة أو اقليم. لن تعمد الدول النامية إلى تمزيق وجدانها وثقافتها وعقيدتها، على أمل أن تصل إلى تقليد آلي للدول الصناعية المتقدمة.

براكتوبيا

حضارة الموجة الثالثة التي نتحدث عنها هل يمكن أن نعتبرها مدينة فاضلة، كتلك المدن الفاضلة التي رسمها الفلاسفة على مدى التاريخ؟ .

يقول آلفين توفلر إنه لا يمكن اطلاق تعبير «يوتوبيا» أو مدينة فاضلة على الصورة التي يطرحها لحضارة الموجة الثالثة، وهو يميل إلى أن يطلق عليها تعبيراً جديداً هو «براكتوبيا» أي مدينة فاضلة عملية.

وهو يرى أن تشكل حضارة الموجة الثالثة سيصاحبه العديد من المشاكل، مثل مشاكل علاقة الانسان بالمجتمع، والحياة السياسية، والعدل والعدالة، والأخلاق. ثم مشاكل أخرى كمشاكل استقرار الأوضاع الاقتصادية الجديدة، والعمالة، والضمان الاجتماعي، والتحول إلى الانتاج للاستهلاك الشخصي. ومع ذلك فهو يتحفظ قائلاً «إلا أن هذا لا يعني ان حضارة الموجة الثالثة مدينة فاضلة سلبية متشائمة كالتي تصورها قصص الخيال العلمي، وترسم فيها صورة المستقبل قائمة على المزيد من التركيز والبيروقراطية والمجتمعات النمطية، تنمحي فيها الفوارق الشخصية والفردية. . إننا على العكس من ذلك نتجه إلى المسار المضاد! . .».

وهو يصف «براكتوبيا»، المدينة الفاضلة العملية، بأنها ليست أفضل الاحتمالات ولا أسوأها، لكنها تجمع بين أمرين: فهي عملية، وتفضل ما بين يدينا. وبعكس المدن الفاضلة الأخرى التي رسمها الفلاسفة بصورة مثالية، ليست «براكتوبيا» خالية من الأمراض، والسفالات السياسية،

والانحطاط الخلقي. . وبعكس المدن الفاضلة الأخرى ليست جامدة متحجرة، جمود وتحجر الصور المثالية غير الواقعية.

إن حضارة الموجة الثالثة تتيح للافراد أكبر قدر من التنوع، وهي تشجع الفوارق العرقية والاقليمية والدينية. . وهي على أية حال حضارة حافلة بالاحتمالات الديمقراطية والإنسانية.

مطاردة قتلة الأفكار

يختتم آلفين توفلر رؤيته الغنية حول حضارة الموجة الثالثة قائلاً:

«إن مسئولية التغيير تقع على أكتافنا. . علينا أن نبدأ بأنفسنا. . علينا أن نتعلم الا نغلق عقولنا أمام كل ما هو جديد، أو غريب، أو متناقض مع ما تعودنا عليه. .وهذا يعني أن نطارد ونحارب «قتلة الأفكار» الذين يندفعون لوأد أي اقتراح جديد بدعوى انه غير عملي، وفي نفس الوقت يدافعون عن كل ما هو موجود باعتباره عملياً، بصرف النظر عما إذا كان هذا الموجود عبثياً جائراً خرباً. . إنه يعني أن نسعى إلى اقامة نظام من أجل حرية التعبير، وحق الناس في أن يرفعوا أصواتهم بما يعتقدونه. . أياً كان ذلك الذي يفكرون فيه». .

«علينا أن نبدأ عملية البناء من الآن، وقبل أن يضعنا تحلل النظم السياسية الحالية تحت وطأة المغامرات العسكرية، وقبل أن يصبح مستحيلاً القيام بعبور سلمي إلى ديمقراطية القرن الحادي والعشرين». .

وبعد . .

وبعد . . فلقد حاولت في هذا الجهد أن أطرح رؤية شاملة للعالم في مطلع القرن الحادي والعشرين، بعيدة عن التحيز لفكر معين أو ايديولوجية خاصة. فأوردت رأي علماء المستقبل في الدول الرأسمالية وفي الدول الشيوعية معاً . . ثم أوردت رؤية خلاقة فريدة. لمفكر يرى حركة التطور من منظور أعلى، يتجاوز التقسيمات الايديولوجية . . يراها بعين لماحة، على شكل موجات عظمى متلاحقة، تندفع واحدة، وراء الأخرى، لتسود عالمنا بأكمله . . شرقه وغربه . .

لقد سبق أن قدمت في كتاب «هذا الغد العجيب» رؤية لمستقبل العالم من الناحيتين العلمية والتكنولوجية . . وفي هذه المحاولة، تصديت لمهمة أصعب، هي محاولة تصور مستقبل العالم من النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية والعقائدية . . تصديت لأمور تمس جوهر حياتنا في المستقبل القريب جداً، مستقبل نعايش بعض ارهاصاته، ويعايش أولادنا وأحفادنا واقعه كاملاً . .

وهو مستقبل لنا فيه ـ كدول نامية ـ دور كبير، وهو يشكل بالنسبة لنا الأمل في اجتياز الهوة التي تفصل بيننا وبين الدول الصناعية المتطورة . .

وتبقى بعد ذلك بعض التساؤلات . .

هل آن الأوان لكي يهتم مفكرونا وكتابنا بالمستقبل الخاص لعالمنا الثالث، في اطار عالم الغد؟

هل يكفي أن يصدر لقارىء العربية، بين الحين والاخر، مقال هنا وكتاب هناك، حول موضوع يمس صميم وجودنا؟

ألا يجدر بنا أن نتكاتف جميعاً لكي نوقظ في شعبنا العربي الاحساس بالمستقبل، وننمي فيه حرفة الأمل؟

الفصل الثامن

مشروع للمناقشة
«تطبيق على الواقع المصري»

مستقبل مصر

من خلال رؤية واقعية . . ومتفائلة

كل ما نكتشفه من نواقص في حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ينبع من نقيصة كبرى، هي غياب الأمل القومي، ركيزة الطموح القومي.

هذه النقيصة الكبرى فعلت فعلها فينا على مدى ما يقرب من عشرين عاماً. . . وأفرخت كل ما هو سلبي في حياتنا، وأورثتنا حيرة وضياعاً، لم تشهدهما مصر منذ زمن طويل.

فالأمل القومي، هو العمود الفقري، الذي لا يتحقق بدونه الحد الأدنى من الانسجام والتوافق في حياتنا، وهو العصب الذي يشد عزمنا، لإنجاز أي تطوير حقيقي لواقعنا.

والأمل القومي لا يمكن أن نستحضره بالشعارات، أو بإثارة النعرات. سبيله الوحيد: استراتيجية عليا بعيدة المدى لشعب مصر، نلتف حولها، وتساعدنا على تقويم جهودنا في كل سبيل، وتحقيق التكامل لهذه الجهود. استراتيجية واضحة، تخرجنا من نطاق ردود الأفعال إلى حيز الأفعال، وتتيح لهذه الأفعال أن تتضافر في سمت مقصود.

فمع كل النيات الطيبة، والجهود الصادقة الجادة التي تبذلها مؤسساتنا، في الحكم وخارجه، نبقى جميعاً في دائرة ردود الفعل. . . نتحرك لسد

عجز، أو نسعى لمواجهة مشكلة مثارة، أو نحتشد لصد خطر. . . دائماً يأتي الفعل من خارجنا، ويبقى جهدنا عند حد التصدي لذلك الفعل.

والنتيجة. . تشتيت للقوى، وتناقض في المسارات، بسبب غياب المقياس، أو(المسطرة)، التي توحد مواقفنا في حركتنا: أولاً في سعينا إلى التطور، ثم في مواجهتنا لما يعترضنا من عقبات.

* * *

عندما نفكر في وضع استراتيجية عليا لمصر، لا يمكن أن يتم ذلك بمعزل عن التطورات الشاملة التي يمر بها العالم. . التطورات التي تمس صميم الحضارة الصناعية، التي فرضت عقائدها ومبادئها على كل نواحي النشاط البشري، منذ أكثر من ثلاثة قرون.

يقول علماء المستقبل إن هذه الحضارة الصناعية تتهاوى تحت ضربات حضارة جديدة زاحفة، أكثر إنسانية في جوهرها، وأكثر احتراماً للإنسان، جسداً وعقلاً وروحاً.

الظواهر العالمية، في الغرب والشرق، تكشف عن جوهرة هذه الهزة الكبرى، وهذا التغيير الشامل الذي بدأ يسود العالم، وبصفة خاصة أكثر الدول الصناعية تطوراً وتقدماً.

كيف؟. . ولماذا؟. . هذا ما سيأتي ذكره فيما بعد، لكننا الان ـ على سبيل التركيز والوضوح ـ سنقف عند حدود هذه العموميات.

* * *

نحن دولة نامية في مضمار التصنيع، تخلفنا لأكثر من قرن عن ركب التطور الصناعي، ولدينا من المشاكل ما هو مترتب على وضعنا كإحدى دول العالم الثالث، بالاضافة الى المشاكل الجديدة التي تصاحب دخولنا الى مشارف المجتمع الصناعي.

لهذا فنحن في حاجة إلى أمرين:

(١) استراتيجية قصيرة المدى تعالج أوضاعنا الآنية الخاصة، وتمهد الأوضاع لما يلي ذلك من استراتيجية بعيدة المدى. تقوم عليها خطتنا الخمسية القادمة، وما يليها من خطط خمسية.

(٢) استراتيجية بعيدة المدى، تتوافق مع التطورات الحضارية الكبرى التي يشهدها العالم.

الاستقرار . . .
هدف الخطة الخمسية القادمة

نحن في حاجة أولاً، وقبل كل شيء - الى حالة من الاستقرار، تسمح لنا برؤية أفضل لواقعنا ومستقبلنا، وتتيح لنا تأمل موقعنا من التغيرات الهائلة الجذرية التي يمرُ بها العالم. ولا بد أن يكون الاستقرار هو الهدف الاول لخطتنا الخمسية التالية.

والاستقرار في أي دولة - كبيرة أم صغيرة - يتوقف على بعض المؤشرات التي يحددها علماء المستقبل في الدول الصناعية، ويطلقون عليها اسم «المؤشرات الحيوية». وهذه المؤشرات يمكن أن تكشف مدى الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي في أي دولة، ضمن الظروف الراهنة، وبالمنطق السائد للحضارة الصناعية.

علينا ونحن نضع الخطة الخمسية القادمة أن نطبق هذه المؤشرات على واقعنا، وأن نرسم خطوط الخطة الخمسية بحيث توفر لمصر أكبر قدر من احتمالات الاستقرار.

* * *

المؤشرات الحيوية للاستقرار.

(١)مدى تعدد مصادر الطاقة:

الدولة التي لديها أكثر من مصدر للطاقة (كالبترول والفحم والغاز والطاقة الشمسية) تكون أكثر استقراراً من الدولة التي لديها مصدر وحيد للطاقة، أيا كان ما يوفره هذا المصدر كمًا.

ـ ما هي مصادر الطاقة في مصر، وهل يمكن التوسع فيها؟

(٢) تعدد مصادر المواد الخام، للاستهلاك والتصدير:

الدولة التي يعتمد اقتصادها على خام وحيد (كالبوتاس مثلاً) تكون أقل استقرار من الدولة التي لديها أكثر من مادة خام، قابلة للاستخدام المحلي والتصدير.

ـ ماهي مصادر الخام في مصر؟ التي تعتبر بدائلاً عند تغير الطلب العالمي؟

(٣) زيادة الصادرات عن الواردات ومعدل التضخم:

الدولة التي تصدر أكثر مما تستورد، تكون أكثر استقراراً. كما أن معدل زيادة نسبة التضخم في دولة ما يعتبر من أهم المؤشرات الحيوية لاستقرارها.

ـ ما هو اتجاه تطور العلاقة بين الاستيراد والتصدير في مصر؟ وما هي معدلات التضخم؟

(٤) مدى توفر الطعام محلياً:

النظام الذي يوفر القدر اللازم من الطعام، والذي يحقق لأفراد الشعب ما يحتاجونه من السعرات الحرارية، والذي يضمن لهم الثروة البروتينية التي تغطي احتياجاتهم، يكون أكثر استقراراً.

- ما هو مدى توفر هذا في مصر؟ وكيف نسعى إلى توفيره؟

(٥) قدر ما يجري تصنيعه محلياً بالكامل:

الدولة التي تنتج أكثر من ٥٠ بليون دولار من البضائع المصنعة تصنيعاً نهائياً يتحقق لها الاستقرار، أما التي ينقص انتاجها عن ١٠ بلايين دولار فلا تكون مستقرة.

- ما هو مجمل التصنيع الكامل في مصر، وكيف نرفعه إلى ما فوق مستوى عدم الاستقرار؟

(٦) الطرق البريّة والبحريّة الهامة:

الوضع الجغرافي للدولة يعتبر من بين مؤشرات الاستقرار، فالدولة التي تتحكم في طريق بري أو بحري هام بالنسبة لإحدى القوتين الكبيرتين، تكون أكثر استقراراً من غيرها.

- هل يتزايد توفر هذا الشرط في قناة السويس؟ وكيف نستثمره؟

(٧) العلاقة بين معدلات دخول الأفراد:

معدل دخل الفرد في الدولة لا يعتبر مؤشراً للاستقرار، لكن المؤشر هو النسبة التي بين متوسط دخل الفرد بين عشرة في المائة من أصحاب أعلى

الدخول، وبين متوسط دخل الفرد بين عشرة بالمائة من أصحاب أقل الدخول. كلما كانت النسبة أقل كلما تحقق المزيد من الاستقرار للنظام (النسبة في السويد ٥,٢، وفي أمريكا ١١، وفي الأرجنتين ٤٠).

ـ ما هي النسبة في مصر حالياً؟ هل تنقص أم تزيد؟.

(٨) معدل البطالة:

والمعدل المعني يكون بالتحديد بين الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٨ سنة. كلما ارتفع المعدل كلما ضعفت احتمالات الاستقرار.

ـ ما هو المعدل في مصر؟ وهل يتزايد أم يتناقص؟

(٩) معدل تزايد السكان:

التزايد السكاني يؤثر على استقرار الدولة. وبصفة خاصة إذا صاحب ذلك تكدس سكاني في المدن الكبيرة.

ـ ما هو مسار معدل التزايد السكاني في مصر؟ وما هو معدل النزوح إلى المدن الكبرى؟

(١٠) إستيعاب الطبقة العاملة للتكنولوجيا الحديثة:

من مؤشرات الاستقرار، مدى استفادة الدولة من العلوم والتكنولوجيا، ومدى استيعاب الطبقة العاملة للنواحي التكنولوجية الحديثة، أكثر من الاعتماد على العمل اليدوي.

ـ ما مدى تحقق هذا في مصر؟ وما مدى تقدم خطط التدريب على التكنولوجيا الحديثة؟.

(١١) درجة تحقق الوحدة القومية

وجود حد أدنى من الوحدة القومية ضروري لتحقيق الاستقرار في أي دولة. وهذا يقتضي دراسة التكوينات والفئات القومية التي تدخل في تكوين الدولة، ومعرفة ما إذا كان هناك أيديولوجية عامة توحد فكر أغلبية الشعب.

ـ ما هي خريطة مصر في هذا المجال؟، وهل توجد أيديولوجية عامة توحد فكر أغلبية الشعب المصري؟

(١٢) مدى تقبل الشعب للسلطة المركزية:

من بين مؤشرات الاستقرار، مدى تقبل الشعب للسلطة المركزية، والكيفية التي تنتقل بها السلطة من نظام إلى آخر، وطريقة معاملة الدولة للمعارضة وأصحاب الرأي المخالف.

ـ ما هو التقييم الصحيح لهذا في مصر؟ وكيف نعمل على دعمه؟

(١٣) مدى الكفاءة الإدارية لأجهزة الدولة:

الكفاءة الإدارية لأجهزة الدولة من بين مؤشرات الاستقرار فيها. وغياب هذا يخلق نوعاً من الانفصام بين مختلف المستويات، ويعوق تطبيق أي خطة، ويفتح الباب أمام التسيب.

ـ ما مدى كفاءة هذه الاجهزة عندنا؟ وكيف نرفع هذه الكفاءة؟

(١٤) الطموح القومي:

الطموح القومي عنصر هام من عناصر الاستقرار لأي دولة. وهو إذا كان في حدود قدرات الشعب وإمكانياته، يصبح عامل دفع، يعوض الكثير من نواحي القصور والسلبيَّة في المؤشرات الحيويَّة الأخرى.

ـ كيف نجعل الشعب المصري قادراً على ممارسة الطموح القومي؟

الاستراتيجية العليا . .
أو الأمل القومي لمصر

حقائق أساسية :

* لا يمكن التفكير في مستقبل مصر ، دون أن تدخل في الاعتبار ما يجري من تطورات في العالم من حولنا.
* من واقع ما جرى ويجري في العالم ، يؤكد بعض علماء المستقبل أن الحضارة الصناعية ، التي صبغت كل شيء في حياتنا ، على مدى ثلاثة قرون قد بدأت تتهاوى دعائمها . وأن ما يسود العالم من فوضى وقلق ، وغياب للرؤية الواضحة ، نشأ من اصطدام موجة حضارية جديدة ، بموجة الحضارة الصناعية المحتضرة.
* السؤال المطروح : هل نمضي في محاولة اللحاق بركب الحضارة الصناعية المتطورة ؟ ، أم نعد أنفسنا للدخول في الحضارة الجديدة القادمة ، ونستفيد من هذا التطور الذي يقدمه علماء المستقبل ، في وضع استراتيجية جديدة لنا ؟

***

حتى نتلمس ملامح الحضارة القادمة ، لا بد أن نجدد خصائص الحضارة الصناعية ، التي سادت العالم على مدى ٣٠٠ سنة. ثم لا بد أن

نوضح مؤشرات انهيار هذه الحضارة ، لكي نصل آخر الأمر إلى تحديد معالم الحضارة الجديدة.

أولاً : خصائص الحضارة الصناعية.

أثر الحضارة الصناعية على حياتنا واسع وعميق ، ولا يقف عند حد أسوار المصنع ، بل يتعدّى ذلك إلى كل شيء في حياتنا ، إلى الأسرة ، والمدرسة ، والمستشفى ، والمكتب ، ونظام الدولة ، وأخيراً إلى العقلية السائدة التي تحكم التفكير في أي شيء.

(١) أهم خصائص الحضارة الصناعية ابتداعها السوق ، كوسيط بين المنتجين والمستهلكين . ثم سيطرة السوق بعد ذلك ، بمؤسساته المختلفة ، على كل مرافق الحياة.

(٢) قامت الحضارة الصناعية على ثلاث عقائد أساسية:

أ ـ حق الانسان في استغلال الطبيعة ، بالطريقة التي يراها ، مستنفذاً موارد الطاقة التي لا تتجدد ، والتي تتخلّق على مدى عشرات الآلآف من السنين (كالفحم والغاز والبترول) ، وملوثاً الغلاف الجوي إلى حد الخطر.

ب ـ اعتبار الانسان قمة التطور على سطح الأرض ، واعتبار الحضارة الصناعية أعلى أشكال التطور الحضاري ، الأمر الذي برر استعمار الشعوب الأقل تطوراً ، واستغلال ثرواتها الطبيعية.

جـ ـ التاريخ يندفع بلا رجعة نحو حياة أفضل للبشر ، وكل إنجاز صناعي جديد ، أياً كان أثره ، هو خطوة في طريق التقدم.

(٣) مع تضخم السوق ، تضخم دور الشركات الكبرى ، والبنوك ، والبنوك المركزية ، وأسواق الأوراق المالية والعملات . ثم ظهرت طبقة خبراء التكامل ، ومن صفوتها تشكلت الحكومة.

(٤) فرضت الحضارة الصناعية على كافة مرافق حياتنا مبادئها الستة:

أ ـ النمطية ، أو التوحيد القياسي (اليونيفورم).
ب ـ التخصص الشديد.
جـ ـ التزامن ، أو توافق حدوث الأشياء زمنياً.
د ـ التركيز الشديد في كل شيء.
هـ ـ عشق الضخامة ، والولع بالوصول إلى النهايات العظمى.
و ـ المركزية الكاملة.

(٥) هذه الخصائص تنسحب ، من حيث الأساس والشكل ، على الدول الصناعية الرأسمالية ، وعلى الدول الصناعية الاشتراكية ، بصرف النظر عن التوجه الأيديولوجي.

ثانياً: مؤشرات انهيار الحضارة الصناعية:

(١) الحرب مع الطبيعة وصلت الى مداها: الغلاف الجوي لا يتحمل المزيد من التلوث ـ وتزايد صعوبة الاعتماد على مصادر الطاقة غير المتجددة (طاقة الحفريات).

(٢) عند الاتجاه الى مصادر بديلة للطاقة، سؤدى هذا الى حالات انكماش متتابعة، تعجل بحدوث تحولات اجتماعية وسياسية كبرى.

(٣) التناقص المتزايد في المواد الخام. مع انحسار النفوذ الاستعماري. وسواء اعتمدت الدول الصناعية على نفسها، أو على الدول غير الصناعية وفق شروط جديدة، فإن التكاليف سترتفع بشكل ملموس في الحالتين.

(٤) الصراعات السياسية والاجتماعية في الدول الصناعية الكبرى بلغت مداها.

(٥) المؤسسات الكبرى في الدول الصناعية تعاني من أزمات متفاقمة.

(٦) لأول مرة في التاريخ، تمر الدول الصناعية بأزمة لم يعرف العالم الصناعي سابقة لها، وهي تزيد البطالة مع تزايد التضخم في نفس الوقت.

ثالثاً: معالم الحضارة الجديدة:

دون الدخول في التفاصيل التي يطرحها علماء المستقبل في تصويرهم للحضارة النامية الجديدة، والتحليلات والتعليلات التي يقدمونها، سنحاول أن نطرح في النقاط المركزة التالية، العناصر الأساسية لهذه الحضارة:

(١) الاعتماد على مصادر طاقة، قابلة للتجدد، لا تزيد من تلوث

الغلاف الجوي ، مثل الطاقة الشمسية ، وطاقة الأمواج والحرارة الجوفية ، وطاقة الاندماج النووي النظيفة.

(٢) عدم التركيز على وسائل طاقة بعينها ، واختيار الأنسب لكل نشاط ولكل موقع.

(٣) تنويع الأسس التكنولوجية ، وعدم التركيز على الصناعات الكهروميكانيكية (مثل السكك الحديدية ، والنسيج ، والصلب ، والسيارات ، والمطاط). والتوسع في الصناعات التي تقوم على نظرية المعلومات ، وعلوم المحيطات والفضاء ، والبتروكيماويات المتطورة ، وأشباه الموصلات ، وصناعة وسائل الاتصال المتطورة.

(٤) تفتيت جماهيرية الاعلام التي التزمت بها الحضارة الصناعية ، والتي سعت عن طريقها إلى توسيع القاعدة الجماهيرية التي تتأثر بنفس الرؤية النمطية . والعمل ـ على عكس ذلك ـ على إتاحة الفرصة لتعدد الرؤى ، وتنوع الاتجاهات.

(٥) الاعتماد الكبير على الكمبيوتر الشخصي ، الذي يتصل ـ عن طريق الكابل ـ بشبكة مخازن المعلومات ، وبجهات العمل.

(٦) ثورة في الذاكرة الاجتماعية ، التي كانت فيما قبل الحضارة الصناعية محصورة داخل الجمجمة البشرية ، والتي خرجت من الجمجمة خلال الصناعة لكي تحفظ بشكل سلبي جامد ، لا تتفاعل إلا إذا

استقبلها مخ بشري . هذه الذاكرة الاجتماعية ، أصبحت بفضل تفتيت جماهيرية وسائل الاعلام ، والصعود الصاروخي للكمبيوتر ، حيَّة دائمة التفاعل ، حتى ولو لم يستقبلها مخ بشري.

(٧) انتهاء المدن العظمى ، وتفتيت الجماهيرية المتكدسة إلى مجموعات متباينة . ويجيء هذا كنتيجة لتفتيت الانتاج الصناعي الضخم ، لكي تقوم به وحدات انتاج صغيرة ، تخضع أكثر لاحتياجات وطبيعة الاقليم ، ولرغبات المستهلك أو الشاري.

(٨) انتهاء الشكل الحالي للمكتب ، نتيجة لثورة المعلومات وتطور الكمبيوتر ، واختفاء الورق من المكتب لتحل محله الذاكرة الالكترونية ، مما يؤدي إلى الاستغناء عن معظم البشر العاملين في المكاتب.

(٩) نظام انتاجي جديد ، يقود إلى تفتيت مركزية الانتاج ، وينقل النشاط الانتاجي إلى البيت ، الذي سيكون مزوداً بوسائل الاتصال الالكتروني . وسيؤدي هذا إلى توفير الطاقة المستهلكة في الانتقال ، والتي تبلغ أضعاف أضعاف الطاقة المستهلكة في الاتصال . كما سيؤدي إلى الحد من تلوث البيئة ، وتوفير الوقت والجهد ، وتحقيق المزيد من الاستقرار للعلاقات الاجتماعية ، وتحويل المنتج إلى شريك في العمل ، عندما يصبح حائزاً لشق أساسي من أدوات الانتاج (أجهزته الالكترونية) .

(١٠) مزيد من التنوع في أشكال الأسرة ، وانتهاء عصر الأسرة النووية ، المكونة من الأب والأم وثلاثة أبناء على الأكثر ، والتي فرضتها الحضارة الصناعية ، لصالح نموها.

(١١) تفتيت المؤسسات الضخمة إلى وحدات أصغر ، وانتشارها مكانياً ، وتغيير البناء الحالي لسوق التوزيع .

(١٢) إضفاء طابع إنساني على المؤسسة الاقتصادية ، لكي تصبح مؤسسة تعمل لحساب البشر ، وتدخل في اعتبارها كافة الاعتبارات الاجتماعية والبيئية والاعلامية والسياسية والخلقية.

(١٣) انتهاء عصر يوم العمل التقليدي ، والتوقف عن الالتزام بالتوقيت والتزامن الميكانيكي الذي ساد الحضارة الصناعية. وتحديد ساعات العمل وفقاً لرغبة العامل.

(١٤) في معظم الهياكل التنظيمية ، وعلى مختلف المستويات ، يجري استبدال نمط «الهرم» الحالي ، بنمط «الشبكة» ، التي لا تخضع لتسيير علوي ، بل تتولى عناصرها التنسيق فيما بينها ، وإعادة ترتيب علاقاتها وفقاً للظروف ، والمصلحة الخاصة ، والعامة.

(١٥) شيوع نمط المنتج المستهلك لانتاجه «المنتهلك» ، وانتهاء سيادة قطاع الانتاج من أجل المبادلة أو السوق . وهذا بدوره سيؤدي إلى إعادة تقييم العمل المنزلي في الحسابات الاقتصادية.

(١٦) انتهاء السيطرة الحالية للسوق على حياة البشر ، خاصة بعد أن

زادت تكاليف عملية التبادل في كثير من الأحيان عن تكلفة السلعة التي يجري تداولها ، وبعد ظهور صناعات الكترونية وتكنولوجية جديدة لا تستلزم بطبيعتها تحمل عبء ذلك الجهاز الضخم.

(١٧) انحسار سلطة الدولة ، استجابة لضغط المنظمات العالمية من أعلى ، والضغط الجماهيري من أسفل . وقيام نظام عالمي يتكون من وحدات صغيرة ترتبط فيما بينها شبكياً ، وبشكل محكم (مثل ارتباط النيورونات ، أو الخلايا العصبية بالمخ).

(١٨) تغيرات أساسية في مفاهيم الزمان ، والمكان ، والسببية ، التي سادت الحضارة الصناعية ، تلبية لاحتياجاتها ، وانسجاماً مع رؤيتها العقلية.

(١٩) أمل جديد لدول العالم الثالث ، التي لن تكون مضطرة في تطورها إلى الالتزام الأعمى بنمط مجتمعات الحضارة الصناعية ، معانية إحباط من يبدأ حركته متأخراً . فمع التغيرات الحضارية العالمية الشاملة ، التي ستسود العالم ، سيتاح لدول العالم الثالث ، أن تتبنى استراتيجيات تطور وتنمية جذرية في جدتها ، تعكس خصائصها الاقليمية والدينية والثقافية ، الأمر الذي ستسمح به طبيعة الحضارة الجديدة.

والآن . . . . . .

على ضوء ما سبق ، يمكن أن نتصور معالم استراتيجية كاملة لمصر ، تختلف عما سبق طرحه من استراتيجيات ، لأنها تقوم على منطق يختلف عن ذلك المنطق الذي خلقته الحضارة الصناعية ، والذي فرض نفسه علينا في الكليات والجزئيات ،شعورياً ولا شعورياً.

إذا ما اقتنعنا بما يطرحه علماء المستقبل ، علينا أن نبذل جهداً خلاَّقاً في النظر إلى واقعنا على ضوء التصور الجديد، في محاولة لرسم ملامح المستقبل المصري ، في كل مجال من المجالات . وعلينا بعد ذلك أن نحدد الواجبات والأولويات ، التي تساعد في تجاوز الفجوة الفاصلة بيننا وبين الدول المتطورة ، والتي تضعنا على المسار السليم ، وسط التطورات التي يمر بها عالم اليوم.

وأطرح هنا ، على سبيل المثال ، بعض الواجبات التي تحتاج إلى دراسة :

* احتمالات التركيز على مصادر غير ضخمة للطاقة ، مصادر متجددة ، ومتنوعة ، تناسب كل إقليم . وإعادة النظر في بناء المفاعلات الذرية غير النظيفة.
* حملة واسعة لخلق كادرات علمية في مجال التكنولوجيات الجديدة (الالكترونيات ، هندسة الجنيات ، البتروكيماويات المتطورة ، الفضاء، وسائل الاتصال المتطورة) . وتدريب قواعد عاملة عريضة لها في نفس الوقت.

* تغليب وسائل الاعلام الاقليمية والنوعية ، وإتاحة الفرصة بشكل أكبر لتعدد الرؤى ، وتنوع الاتجاهات.

* بدء حملة قومية لتعميم استخدام الكمبيوتر ، والتدريب على استعماله وصيانته ، وجعله عنصراً أساسياً في برامج التعليم . والتركيز في العلاقات الدولية على اكتساب الخبرة التكنولوجية اللازمة للبدء في إقامة صناعات الكترونية متطورة.

* اقامة مخازن معلومات ، وشبكة اتصالات الكترونية ، وتعميم شبكة كابلات الاتصال في جميع أنحاء الجمهورية ، حتى يمكن الاعتماد على الاتصالات كبديل للانتقال.

* التركيز على خلق مراكز صناعية إقليمية صغيرة ، تنتشر في أنحاء البلاد ، تناسب كل اقليم ، وتعتمد على مصادر الطاقة الأنسب محلياً . وتشجيع نمط المنتج الذي يستهلك إنتاجه ، هو أو الدائرة المحيطة به . وبهذا ينتهي النظر إلى التزايد السكاني كأزمة.

* إعادة النظر في يوم العمل التقليدي ، والتحول عن فكرة التزامن الميكانيكي ، وتشجيع ممارسة العمل في البيت.

* أساليب التحول من النظام الهرمي إلى نظام «الشبكة» ، التي تنبع قرارتها من التنسيق بين المصالح الخاصة والعامة لعناصرها ، والتي تعدل كيانها دائماً وفقاً للظروف التي تمر بها . والتفكير في تطبيق هذا ابتداءً من التنظيمات الاقليمية الصغيرة ، إلى كيان الدولة ذاته ، بل وإلى التنظيمات الدولية العربية والاسلامية.

* إعادة النظر في مركزية الدولة ، النابعة من منطق واحتياجات الحضارة الصناعية . وإعادة النظر في أنظمة التمثيل النيابي الحالية ، بحيث تصبح أكثر حيوية في تعبيرها عن إرادة البشر ، وبحيث تنتفي عنها صفة الميكانيكية التي فرضتها الحضارة الصناعية .

* * *

راجي عنايت

المراجع

المراجع العربية:

(١) صدمة المستقبل ـ آلفين توفلر ـ ترجمة محمد علي ناصف ـ دار النهضة.

(٢) هذا الغد العجيب ـ راجي عنايت ـ دار الشروق.

المراجع الانجليزية:

(1) THE THIRD WAVE – ALVIN TOFFLER – BANTAM.

(2) PREVIEWS AND PREMISES, ALVIN TOFFLER - PAN.

(3) THE ADAPTIVE CORPORATION, ALVIN TOFFLER - PAN.

(4) THE PRIVATE FUTURE – MARTIN PAWLEY – PAN.

المحتوى

صفحة

سلسلة أغرب من الخيال

صدر من هذه السلسلة :

سر الأطباق الطائرة
النبات يحب ويتألم
الهرم .. وسر قواه الخارقة
رجل يعرف كل الأسرار
٣٠ ظاهرة خارقة .. حيّرت العلماء
أحلام اليوم حقائق الغد
لعنة الفراعنة .. وهم أم حقيقة
عجائب العقل البشرى
عجائب بلا تفسير
هذا الغد العجيب
أسرار حيرت العلماء
التنجيم وتفسير الأحلام
التخاطر والسحر واليوجا
الخروج من الجسد
المستقبل بين الشرق والغرب
العالم سنة ٢٠٠٠ .. مستقبل جديد للبشر

رقم الايداع : ٨٧/٢١٥٧
الترقيم الدولى : ٦ – ٠٧٦ – ١٤٨ – ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى – هاتف : ٧٧٤٨١٤ – ٧٧٤٥٧٨ – برقيا : شروق – تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ – هاتف : ٣١٥٨٥٩ – ٨١٧٧٦٥ – ٨١٧٢١٣ – برقيا : داشروق – تلكس : SHOROK 20175 LE

العالم سنة ٢٠٠٠
مستقبل جديد للبشر

- الأنفاس الأخيرة للحضارة الصناعية التي سادت العالم
- حضارة الموجة الثالثة التي تدق بعنف على دعائم الحضارة الصناعية
- شكل الحياة الجديدة التي تنتظرنا في المستقبل القريب
- تحول العمل من المصنع والمكتب الى البيت
- انتهاء عصر المدن العظمى والشركات العملاقة
- الانتاج من أجل الاستهلاك الشخصي يسود حياتنا قريباً
- سقوط دولة السوق الذي يتحكم في حياتنا
- الحضارة القادمة أمل جديد لشعوب العالم الثالث



